

مشاهير قادة الاسلام

١٥

المعتمد وابن تاشفين

بسام العسلي

دار النفائس



(١٥)

المُعتَمِد وابن تاشفين

بسّام العسليّ

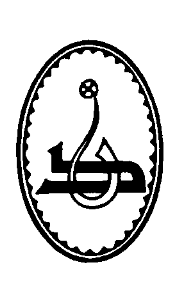


الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

© دار النفائس

بيروت : ص ب ٦٣٤٧ ـ هاتف ٨١٠١٩٤ ـ برقياً : دانفايسكو



المعتمد وابن تاشفين

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أرواح المجاهدين في سبيل الله .
وإلى المؤمنين بالجهاد في سبيل الله طريقاً
وحيداً لعزة العرب المسلمين خاصة ،
وللمسلمين في كل أرجاء الدنيا بصورة عامة .

بسام

المقدمة

تجربة تاريخية جديدة ، كان مسرح أحداثها فوق أرض اندلس المسلمين ، وقد ارتبطت هذه التجربة باسم قائدين مسلمَين (المعتمد بن عباد ـ محمد) و (يوسف بن تاشفين) وكان موقعها (الزلاقة) على ضفاف وادي (نهريانة) .

لقد ولد المعتمد بن عباد في (باجة) من بلاد الاندلس ، وعاش حياة الترف والدعة ، فقد ضمن له أبوه (المعتضد) توحيد أكبر عدد من إمارات الاندلس (الممزقة المتصارعة فيما بينها) وسار المعتمد على سيرة أبيه . غيرِ أنه لم ينسَ نصيبه من الدنيا ، فكان بلاط أشبيليا ثم قرطبة موئلاً يقصده رجال العلم والأدباء والفنانون وذوو الحاجة من كل أرجاء دنيا المسلمين . وولد ابن تاشفين ـ يوسف ـ في صحراء المغرب الإسلامي . وكانت بلاد المغرب تعاني من التمزق ، فعمل على توحيدها بجيش المرابطين ـ الملثمين ـ ومضى يدعم من قواعد دولة المسلمين ، ويعززها ، حتى غدت دولة قوية قادرة على حماية المغرب الإسلامي والدفاع عنه .

في تلك الفترة من حياة المسلمين ـ في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ، أو النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة ـ بدأ الفرنج الصليبيون ـ في التطلع للنيل من الدولة الإسلامية ، في مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، فبدأت روح الصليبية المتعصبة العمياء في التحرك على المستوى الشامل ، غير أن قوة المسلمين السلاجقة أحبطت نواياهم في المشرق عندما هزمت فصائلهم في معركة (ملازكرد) وهي المعركة التي ترددت أصداؤها قوية في المغرب ، على الرغم من أنها لم تكن أول معركة حاسمة ينتصر فيها المسلمون . فبدأت محاولة الصليبيين بالتوجه إلى الاندلس ، التي كانت في حرب دائمة وصراع مستمر قاده (القشتاليون) النصارى ضد المسلمين ؛ حتى إذا ما جاءت سنة ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م ، استطاعت حشود الصليبيين تحقيق أول انتصار حاسم على المسلمين بالاستيلاء على (طليطلة) قاعدة القوط القديمة وعاصمتهم . وتردد صدى هذا الحدث قوياً رهيباً ، في الشرق والغرب على السواء ، فقد وجد فيه الفرنج الصليبيون بداية الانتقال الشامل من الدفاع إلى الهجوم . ووجد فيه المسلمون حافزاً قوياً أيقظهم من غفوتهم ونبههم إلى الاخطار التي باتت محدقة بهم .

كان سيد أشبيليا (المعتمد بن عباد) هو أول من تنبه للخطر ، فمضى يحشد القوى ، ويستنهض العزائم ، ويطلب الدعم ممن حوله . وكان أمير المسلمين في المغرب (يوسف بن تاشفين) في طليعة من لجأ اليه (المعتمد) . وأسرع ابن تاشفين

لتلبية نداء الإسلام المنطلق من قلب أندلس المسلمين . فكانت معركة (الزلاقة) الظافرة التي نكب فيها النصارى نكبة مريعة ، جعلتهم يدركون أن الاندلس ليست من الضعف كما كانوا يتوهمون ويحلمون .

ومضت الأحداث متسارعة ، فاضطلع المرابطون بأعباء الجهاد ، واستولوا على الامارات الأندلسية ، وفي جملتها (إمارة أشبيلية) التي حمل أميرها (المعتمد) الى المغرب ليقضي بقية حياته في سجن (أغمات) . في وقت كانت جحافل الفرنج ـ الصليبيين، تتجه الى الشرق لشن حملات (الحروب الصليبية) .

واذن ، فهناك ثلاث تجارب تاريخية :

١ ـ **تجربة المعتمد بن عباد** : صاحب النداء المشهور عندما حذره أعوانه من الاستنصار بابن تاشفين ، فأطلق مقولته الشهيرة : « رعي الجمال خير من رعي الخنازير » ؛ كناية على أن قبوله العمل راعياً للجمال في بلاد المسلمين خير له وأجزى من العمل راعياً للخنازير في بلاد يحكمها أو يتحكم بها أعداء المسلمين .

٢ ـ **تجربة يوسف بن تاشفين** : المسلم المؤمن المجاهد وقائد المرابطين ، الذي خاض بهم ومعهم أيام الجهاد في سبيل الله ، دفاعاً عن حمى المسلمين وثغورهم في أندلس المسلمين .

٣ ـ **تجربة موقعة الزلاقة** : بمقدماتها وظروفها ونتائجها .

ولكل تجربة من هذه التجارب الثلاث حجمها التاريخي الذي

تصعب الإحاطة به ، واستيعابه ، واعطاءه ما يستحقه من البحث والدراسة . غير أن أهمية الموضوع وكبر حجمه ، لا يشكلان عائقاً أمام محاولة التركيز على أبرز ما في الاحداث من الأهمية ، ومن غير الإهمال للمتعة المرافقة لكل استقراء للتجارب التاريخية .

وثمة ملاحظتان لا بد من التعرض لهما في أسلوب هذا البحث ، وفي موضوعه :

الملاحظة الاولى : أسلوب البحث :

خلافاً لما عهدنا في الابحاث السابقة ، فإن بحثنا هذا يتضمن قدراً غير قليل من المقتطفات الشعرية التي تصور جوانب الحياة العامة في أندلس المسلمين ، قدر تصويرها للأحداث التي صاحبت حياة المعتمد بن عباد ورافقتها ، ويعكس ذلك بصورة طبيعية ما وصل اليه التطور الأدبي في أندلس المسلمين خلال تلك الحقبة التاريخية ، بقدر ما يعكس أيضاً حياة القصر في عهد بني عباد . وقد يكون من العسير إسقاط هذه الناحية في نهج البحث . من الناحية الوضعية ، وعلاوة على ذلك كله ، فقد كانت حياة المعتمد ، وحياة أفراد أسرته ، بمثابة أغنية شعرية اختلطت فيها خيوط المجد بخيوط المأساة ، فشكلت نسيجاً متلاحماً لا يمكن فصل عراه ، أو التنكر للحنه الذي سيبقى عذباً ومثيراً كلما عزفته قيثارة الزمن .

الملاحظة الثانية : موضوع البحث :

إذ أن هذا الكتاب يأتي في نهاية المجموعة الاولى من

(مشاهير قادة الاسلام) . ويتوافق ذلك بحسب ما أريد له ، مع مطلع القرن الخامس عشر للهجرة ، حيث تتفتح كل الآمال على مستقبل أفضل لعالم العرب المسلمين خاصة ، وللمسلمين من غير العرب عامة ، وذلك بالرغم من الظلمة القاتمة التي تسدل ستارها على العالمين العربي والاسلامي .

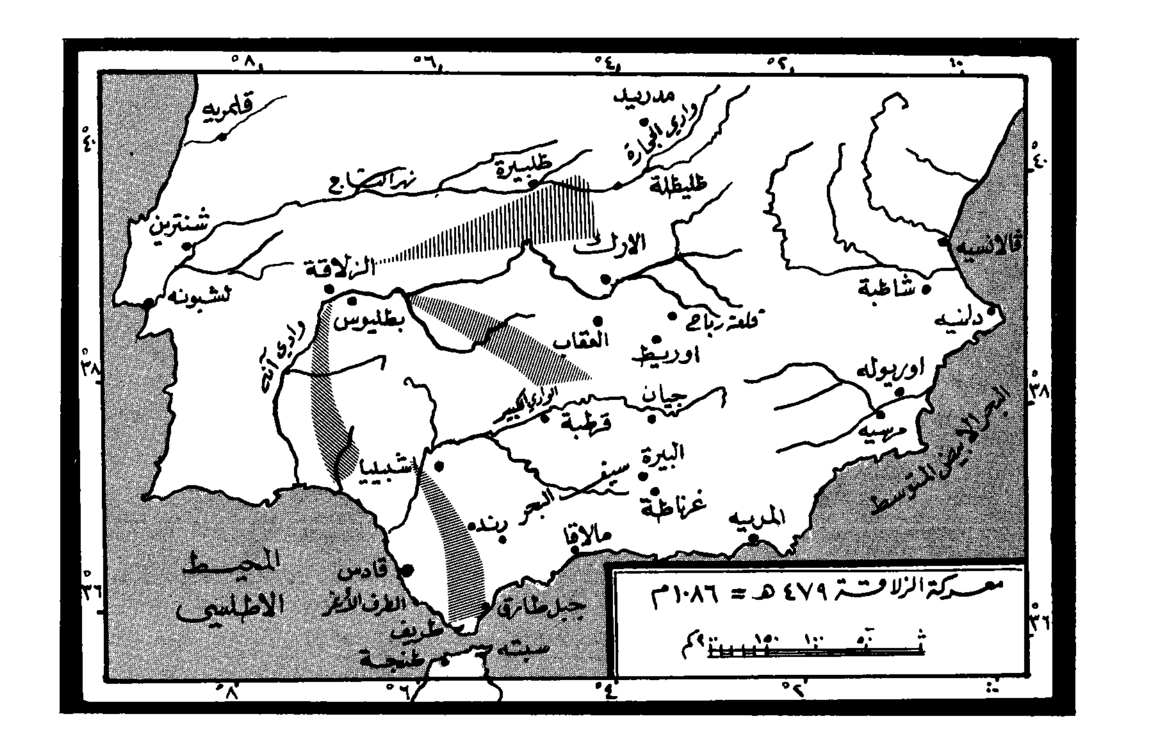
لقد مضى على معركة الزلاقة وأبطالها زهاء التسعة قرون . وكانت هذه المعركة هي نقطة التحول الحاسمة على طريق الصراع الصليبي ـ الاسلامي . وقد جاءت بعدها مباشرة حملات صليبية دمرت المشرق بقدر ما دمرت المغرب ، ثم استمرت هذه الحرب الصليبية الظالمة بأشكال مختلفة وأساليب متباينة في محاولة حتى يطفئوا نور الله بأيديهم (ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

ويقف العالم العربي والإسلامي ، في مطلع القرن الخامس عشر للهجرة وهو يتحسس طريقه وسط الظلام المحيط به ، وهو لا يحتاج لأكثر من استقراء تجربته الذاتية حتى تستنير له طرق الظلام وتتبدد . فلقد تراكمت منذ (موقعة الزلاقة) وحتى اليوم ، حصالة من التجارب قلما توافرت لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب ، وهذه الحصالة تشكل مناراً ساطعاً لكل من أراد السير على طريق الحق والهدى .

لقد وصلت الحرب الصليبية المتطورة ، مع بداية القرن الخامس عشر للهجرة مدى اتساعها وذروة شدتها ، ولكن ، وعلى الرغم من ذلك ، فلا زال أمل المسلمين بمستقبلهم أكبر

من كل التحديات . ذلك أن تجربتهم التاريخية الذاتية ، قد أكدت لهم المرة تلو المرة ، أنه لا بد من اندحار قوى الشر أمام سلطان الخير ، وأنه لا بد لظلمة الليل من أن تتبدد عندما يشرق الفجر ، وعسى أن يكون موعد الفجر ليس ببعيد ، ويتحقق للمسلمين في كل ديارهم وأوطانهم ، ما هم أهل له طالما التزموا بحمل الرسالة وأداء الأمانة . (ولينصرن الله من ينصره) .

بسام العسلي



معركة الزلاقة ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦م
مدريد
وادي الحجارة
طليطلة
طلبيرة
نهر التاج
قلمرية
شنترين
لشبونه
الزلاقة
الأرك
بطليوس
وادي آنة
العقاب
قلعة رباح
اوريط
جيان
الوادي الكبير
قرطبة
اشبيليا
البيرة
غرناطة
بنده
مالاقا
المريه
قادس
الطرف الأغر
جبل طارق
طريف
سبته
طنجة
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
بلنسية
شاطبة
دانيه
اوريوله
مرسيه

١ ـ وجيز الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	الوجيز
٤٥٥	١٠٦٢	قيام دولة المرابطين واستيلاء ابن تاشفين على المغرب (مراكش) .
٤٥٦	١٠٦٣	البابا الاسكندر الثاني يمنح الغفران لكل مقاتل من أجل الصليب في أندلس المسلمين .
٤٦٤	١٠٧١	معركة (ملازكرد ـ مانذيكرت) وانتصار المسلمين السلاجقة على الارمن المسيحيين .
٤٧٨	١٠٨٥	الفرنج الصليبيون يستولون على (طليطلة) في الأندلس
٤٧٩	١٠٨٦	**يوسف بن تاشفين يعبر إلى الاندلس بقوات المرابطين لنجدة المسلمين ويخوض مع المعتمد بن عباد معركة (الزلاقة) الظافرة .**
٤٨٤	١٠٩١	يوسف بن تاشفين يعزل (المعتمد بن عباد) ويسجنه في سجن اغمات .
٤٨٨	١٠٩٥	وفاة المعتمد في سجنة في (اغمات) في المغرب .
٤٨٩	١٠٩٦	مجمع (كليرمونت) يعلن الحرب الصليبية على المسلمين
٤٩٣	١٠٩٩	الحملة الصليبية الأولى تصل الى فلسطين وتحتل (بيت المقدس) .
٥٠٠	١١٠٦	وفاة يوسف بن تاشفين .

٢ ـ دولة بني عباد في أشبيليا

السنة الهجرية	السنة الميلادية	الأمير ـ الحاكم
٤١٤	١٠٢٣	القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد
٤٣٣	١٠٤٢	عباد بن محمد (المعتضد) .
٤٦١ ـ ٤٨٤	١٠٦٩ ـ ١٠٩١	محمد بن عباد (المعتمد) .



٣ ـ دول ملوك الطوائف

الدولة	عاصمتها	مدتها ـ هجرية	مدتها ـ ميلادية	مدتها	ملاحظات
١ ـ دولة بني عباد	اشبيليا	٤١٤ ـ ٤٨٤	١٠٢٣ ـ ١٠٩١	٧٠ عاماً	المرابطون يستولون عليها .
٢ ـ دولة بني حمود	مالقا	٤٠٧ ـ ٤٤٩	١٠١٦ ـ ١٠٥٧	٤٠ عاماً	المعتضد يستولي على مالقا .
٣ ـ دولة بني جهور	قرطبة	٤٢٢ ـ ٤٦٣	١٠٣١ ـ ١٠٧٠	٤٠ عاماً	المعتمد يستولي على قرطبة .
٤ ـ دولة بني الأفطس	بطليوس	٤١٣ ـ ٤٨٨	١٠٢٢ ـ ١٠٩٤	٧٢ عاماً	المرابطون يحتلونها .
٥ ـ دولة بني يحيى	لبله	٤١٤ ـ ٤٤٥	١٠٢٣ ـ ١٠٥٣	٣٠ عاماً	المعتضد يحتلها .
٦ ـ دولة بني مزين	باجه وشلب	٤٣٢ ـ ٤٥٥	١٠٤١ ـ ١٠٦٣	٢٢ عاماً	المعتضد يحتلها
٧ ـ دولة بني البكري	ولبه	٤٠٣ ـ ٤٤٣	١٠١٢ ـ ١٠٥١	٤٠ عاماً	المعتضد يحتلها .
٨ ـ دولة بني هارون	شنتمرية الغرب	٤١٧ ـ ٤٤٣	١٠٢٦ ـ ١٠٥١	٢٥ عاماً	المعتضد يحتلها
٩ ـ دولة بني ذي النون	طليطلة	٤٢٧ ـ ٤٧٨	١٠٣٦ ـ ١٠٨٥	٥٠ عاماً	الفونسو يستولي عليها .
١٠ ـ دولة بني مناد	غرناطة	٤٠٣ ـ ٤٨٣	١٠١٣ ـ ١٠٩٠	٧٧ عاماً	المرابطون يحتلونها .

١١ ـ دولة بني برزال	قرمونه	٤٠٤ ـ ٤٥٩	١٠١٣ ـ ١٠٦٧	٥٥ عاماً	المعتمد يحتلها .
١٢ ـ دولة بني دمر	مورور	٤٠٣ ـ ٤٥٨	١٠١٣ ـ ١٠٦٦	٥٣ عاماً	المعتمد يستولي عليها .
١٣ ـ دولة بني خزرون	أركش	٤٠٢ ـ ٤٦١	١٠١١ ـ ١٠٦٨	٥٧ عاماً	المعتمد يحتلها .
١٤ ـ دولة بني يغرن	رنده	٤٠٦ ـ ٤٥٧	١٠١٥ ـ ١٠٦٥	٥٠ عاماً	المعتمد يحتلها .
١٥ ـ الدولة العامرية	المرية	٤٠٥ ـ ٤٨٤	١٠١٤ ـ ١٠٩١	٧٧ عاماً	المرابطون يحتلونها .
١٦ ـ الدولة العامرية	مرسية	٤٠٣ ـ ٤٧١	١٠١٢ ـ ١٠٧٨	٦٦ عاماً	المعتمد يسيطر عليها .
١٧ ـ مملكة دانية والجزائر	دانية	٤٠٠ ـ ٤٨٤	١٠٠٩ ـ ١٠٩١	٨٢ عاماً	المرابطون يحتلونها .
١٨ ـ مملكة بلنسية	بلنسية	٤٠٠ ـ ٤٥٧	١٠٠٩ ـ ١٠٦٥	٥٧ عاماً	القشتاليون يحتلونها .
١٩ ـ امارة شنتمرية الشرق	شنتمرية	٤٠٣ ـ ٤٩٧	١٠١٢ ـ ١١٠٤	٩٢ عاماً	المرابطون يحتلونها .
٢٠ ـ امارة البونت	البونت	٤٠٠ ـ ٤٩٥	١٠٠٩ ـ ١١٠٢	٩٣ عاماً	المرابطون يحتلونها .
٢١ ـ مملكة سرقسطة	سرقسطة	٤٠٨ ـ ٥٠٣	١٠١٧ ـ ١١١٠	٩٣ عاماً	المرابطون يحتلونها .



الفَصْل الأوّل

الوضع السياسي العام

١ ـ دولة بني عباد
٢ ـ المعتمد بن عباد
٣ ـ يوسف بن تاشفين
٤ ـ الموقف على جبهة الشمال الأندلسي
آ ـ متحولات الصراع
ب ـ وقعة بطرنة (٤٥٦ هـ)
ج ـ الصراع على بربشتر(٤٥٦ هـ)
د ـ سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ)



١ ـ دولة بني عباد

غربت شمس شيخ المجاهدين ـ الحاجب المنصور ـ وتنفس زعماء شبه الجزيرة الأندلسية الصعداء ، فقد أتعبهم الجهاد ، وأرهقهم الحاجب بغزواته المتواصلة ، وفتوحاته المتتابعة ، حتى عادت شبه الجزيرة موحدة كما كانت أيام الفتح الاولى ، وانصرف زعماء الاندلس بعد أن غابت عنهم القبضة التي كانت توحدهم ، وتفرض سيطرتها عليهم ، للنظر في شؤونهم الخاصة ، والاهتمام بأمور المدن ، أو الامارات ، أو الممالك ، التي يحكمونها واستقلت كل فئة بما تحوزه من الأراضي والحدود ، ثم التفتت في محاولة منها لتوسيع حدودها على حساب ما حولها . وتحولت المنافسة الى صراع ، والصراع الى عداء ، والعداء الى حروب في كثير من الأحيان ، استنزفت الجهد ، وصرفت البلاد وأهلها عن كل ما يتهددها من أخطار ، وما يحيط بها من المهالك والدمار .

وتمزقت الأندلس الى اكثر من عشرين دولة[1] ، وأعادت

---

(١) انظر الجدول السابق في دول (ملوك الطوائف) .

قشتالة تنظيم أمورها ، وأفادت من تمزق دويلات المسلمين . ففرضت عليهم الجزية جميعاً ، وأخذت في توسيع حدودها على حسابهم ، كلهم . ووصلت الأمور ذروة خطورتها باستيلاء النصارى على طليطلة .

كان (بنو عباد) في جملة من استقلوا بالملك ، وجعلوا من (أشبيليا) قاعدة لهم ، وأخذوا في بسط نفوذهم ، وتوطيد دعامة دولتهم على أسس ثابتة وقوية ، وقد عمل (المعتضد والد المعتمد) على ضم دول (مالقا) و(لبله) و(باجهة) و(شلب) و(ولبه) فبات يسيطر على الجنوب الأندلسي. ثم جاء المعتمد فسار على نهج أبيه ، فضم اليه دول (قرطبة) و(قرمونة) و(مورور) و(أركش) و(رندة) و(مرسية) وباتت دولة (بني عباد) من أقوى الممالك الاندلسية . فكان لزاماً عليها أن تدفع ضريبة القوة وذلك بالتصدي للأعداء ومجابهتهم . يحفزهم الى تحمل هذا الواجب ، ما اشتهر به (بنو عباد) من الأصالة العربية ، والتمسك بالدين الاسلامي والدفاع عنه ، وما عرف عن أفرادها من الكفاءة القيادية العالية ، الأمر الذي وصفته المصادر العربية[1] بقولها : « يأتي في أولية بني عباد ، الوزير أبو القاسم محمد بن عباد ، وهذه بقية منتماها في لخم ، ومرتماها الى مفخر ضخم . وجدهم المنذر بن ماء السماء، ومطلعهم من جو تلك السماء . وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر، وتنفس منهم من أعبق الزهر ، وعمروا ربع الملك ، وأمروا بالحياة والهلك . ومعتضدهم

(١) نفح الطيب (تحقيق الدكتور احسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨) ٤/٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

أحد من أقام وأقعد ، وتبوأ كاهل الارهاب واقتعد، وافترش
من عريسته ، ، وافترس من مكايد فريسته ، وزاحم بعود .
وهدَّ كل طود ، وأخْمَل كل ذي زي وشارة ، وخَتَـل بوحي
وإشـارة ، ومعتمـدهم كـان أجـود الامـلاك ، وأحـد نيـرات
تلك الافلاك » . وفي مقولة اخرى جاء ما يلي : « القاضي
أبو القاسم هـذا جدهم ، وبـه سفر مجـدهم ، وهو الـذي
اقتنص لهم الملك النافر ، واختصهم منه بالحظ الوافر ، فانه أخذ
الرياسة من أيدي جبابر ، وأضحى من ظلالها أعيان أكابر ، عندما
أناخت بها أطماعهم ، وأصاخت إليها أسماعهم ، وامتدت اليها من
مستحقيها اليد ، وأتلعوا أجياداً زانها الجَيَد ، وفَغَر عليها فمه حتى
هجا بيت العبدى ، وتصدى إليها من تحضر وتبدَّى ، فاقتعد سنامها
وغاربها ، وأبعد عنها عجمها وأعـاربهـا ، وفاز من الملك بأوفر
حصة ، وغدت سِمته به صفة مختصة ، فلم يمح رسم القضاء ،
ولم يتسم بسمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ، وما زال يحمي
حوزته ، ويجلو غرته ، حتى حوته الرجام ، وخلت منه تلك
الأجام ، وانتقل الملك الى ابنه المعتضد بالله ، فارتمى إلى أبعد
غايات الجود بما أناله وأولاه ، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدر
ذلك المنهل ، وعكّر أثناء ذلك صفو العل والنهل ، وما زال للأرواح
قابضاً ، وللوثوب عليها رابضاً ، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من
الوكر ، وينتصف منهم بالدهاء والمكر ، إلى أن أفضى الملك الى
ابنه المعتمد ، فاكتحل منه طرفه الرمد ، وأحمد مجده ، وتقلد منه
أيَّ بأس ونجدة ، ونال به الحق مناه ، وجرَّر سناه ، وأقام في الملك
ثلاثاً وعشرين سنة ، لم تعدم له فيها حسنة ، ولا سيرة متحسنة » .

ثم يأتي المؤرخ (ابن خلدون) [1] ليبرز بصورة أوضح مراحل تشكل دولة (بني عباد) فيقول : « كان ابتداء أمر ملوك الطوائف بالأندلس ، وتصاريف أحوالهم ، لما انتثر ملك الخلافة العربية بالأندلس ، وافترق الجماعة بالجهات وصار ملكها في طوائف من الموالي والوزراء ، وأعياص الخلافة ، وكبار العرب والبربر ، واقتسموا خططها ، وقام كل واحد بأمر ناحية منها . وتغلب بعضهم على بعض استقل أخيراً بأمرها ملوك منهم استفحل شأنهم ، ولاذوا بالجزية للطاغية أو يظاهرون عليهم ، أو ينتزعونهم ملكهم » .

كان أولهم القاضي أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد بن عمر ابن أسلم بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي .
وكان محمد بن إسمعيل صاحب الصلاة ـ الامام ـ في (طشانة) . ثم ولي ابنه اسماعيل الوزارة بأشبيلية سنة (٤١٣ هـ) . وولي ابنه ابو القاسم القضاء بها والوزارة من سنة (٤١٤ هـ) الى أن هلك سنة (٤٣٣ هـ) . وكان أصل رياسته انه كان له اختصاص (القاسم بن حمود) وهو الذي أحكم عقد ولايته ، وكان (محمد بن زيري) من أقيال البرابرة ، والياً على أشبيليا . وحدثت ثورة في (قرطبة) ضد حاكمها (القاسم ـ من بني حمود) ومارس (أبو القاسم) دوره ، فتم طرد (القاسم) ومعه (محمد بن زيري) من غرناطة وأشبيليا . وصار الأمر شورى بين (أبو القاسم) و (أبي بكر الزبيدي)

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني ـ ١٩٦٨ ـ (٣٣٦/٤ ـ ٣٤٢) .

و(محمد بن رمخ الألهاني). ثم استبد (ابو القاسم) عليهم بالجند ، ولم يزل على القضاء . ولما طرد (القاسم ـ من بني حمود) من أشبيليا ، عدل عنها الى (قرمونة) وحدثت فتنة تدخل فيها (أبو القاسم ـ ابن عباد) فتم خلع (القاسم) وضمها (ابن عباد) وتحول الى (شريش) و(قرمونة) فاستبد بهما . وقام ابنه (عباد) وتلقب بالمعتضد ، واستولى على (سلطانة) واشتدت حروبه وأيامه . وتناول طائفة من الممالك بالأندلس ، وانفسح أمده ، وأول ما افتتح أمره بمداخلة (محمد بن عبد الله البرزالي) صاحب (قرمونة) في إفساد ما بينه وبين (القاسم بن حمود) حتى تحول عنه إلى (شريش) . ثم تحارب مع (عبد الله بن الأفطس) ، صاحب (بطليوس) ، وغزاه ابنه (اسماعيل) في عساكره ، ومعه (محمد بن عبد الله البرازلي) فلقيه (المظفر بن الافطس) فهزمهما ، وأسر (المظفر بن البرزالي) الى أن أطلقه بعد حين. ثم فسد ما بينه وبين (البرزالي) واتصلت الفتنة بينهما ، الى أن قتله ابنه (اسماعيل) حيث خرج عليه في سرية ، فأغار على (قرمونة) وأكمن الكمائن ، فركب (محمد البرزالي) في أصحابه ، وتصدى له (اسماعيل) إلى أن بلغ به الكمين ، فخرجوا عليه فقتلوه ، وذلك سنة (٤٣٤ هـ) .

اعلن بعد ذلك (اسماعيل) تمرده على أبيه (المعتضد) . وشجعه على ذلك العبيد والبرابرة الذين أغروه بالملك ، فأخذ ما قدر عليه من المال والذخيرة ، وفر إلى جهة الجزيرة للثورة بها . وكان أبوه(المعتضد)آنذك في حصن(الفرج). فأنفذ الخيالة في طلبه ، فمال الى قلعة (الورد) فقبض واليها عليه ، وأرسله الى أبيه

فقتله ، وقتل كاتبه وكل من كان معه . ثم رجع الى مطالبة البربر المستقلين بالثغور والتضييق عليهم . وبدأ قبل كل شيء بصاحب (قرمونة) ـ حاكمها ـ وكان بها (المستظهر العزيز بن محمد بن عبد الله البرزالي) وليها بعد أبيه ، وكانت له معها (استجة) و(المروز) . وكان (نموز) و (رواركش) للوزير نوح الرموي من برابرة العدوة ، وشيعه المنصور وقد استقل بها منذ سنة (٤٠٤) حتى سنة (٤٣٣ هـ) ولم يزل المعتضد يضايقه ، واستدعاه بعض الأيام لولاية ، فحبسه ، وكاده في ابنه بكتاب على لسان جاريته (بَرَنْدة) أنه ارتكب منها محرماً ، ثم أطلقه ، فقتل ابنه . ثم شعر بالمكيدة فمات أسفاً سنة (٤٥٠ هـ) . وولي ابنه أبو نصر إلى أن غدر به في الحصن بعض أجناده ،فسقط من السور، ومات سنة(٤٥٩ هـ) .

كانت (شريش) تحت حكم (خزرون بن عبدون) ، و(أركش) تحت حكم (ابن نوح)، و (شريش) تحت حكم (ابن خزرون) و (رندة) تحت حكم (ابن أبي قرة) ، فتألفهم (المعتضد)واعترف بهم واستمالهم حتى صاروا في حزبه ووثقوا به . ثم استدعاهم لوليمة وغدر بهم في حمام استعمله لهم على سبيل الكرامة ، وأطبقه عليهم ، فهلكوا جميعاً إلا ابن نوح فانه حفظ له حياته من بينهم ، وفاء له لموقف مماثل كان قد وقفه (ابن نوح) منه . ثم بعث (المعتضد) من تسلم معاقلهم ، وضمها الى حكمه . وخرج (باديس) لطلب ثأرهم منه ، واجتمعت اليه عشائرهم ، فنازلوه مدة ثم انصرفوا ، وانتقلوا الى عدوة المغرب .

وكانت عساكر (المعتضد بن عباد) تحاصر (عبد العزيز

البكري) في (اونية ـ و ـ شلطيش) غير أن (ابن جهـور) توسط لدى المعتضد ، فسالمه مدة . حتى اذا ما مات (ابن جهـور) عاد (المعتضد) فأرغم (البكري) على التخلي عن معاقله سنة (٤٤٣ هـ) فولى عليها ابنه (المعتمد) .

وكان يحكم (شلب) ابن (المظفر أبو الأصبغ عيسى بن القاضي أبي بكر ـ محمد بن سعيد بن مرين) فاستولى عليها المعتضد سنة (٤٤٢ هـ) ونقل اليها المعتمد ، فنزلها واتخذها دار إمارة . ثم سار (المعتضد) الى (شنت بريه) وبها (المعتصم محمـد بن سعيد بن هـرون) فخلعه عنهـا وأضافهـا لابنـه (المعتمد) . وكذلك استولى المعتضد على (لبله) و(اونية) و(شلطيش) في سنة (٤٤٥ هـ) فصارت هذه كلها من ممالك (ابن عباد) الذي تملك أيضاً (مرسيه) سنة (٤٥٥ هـ) .

وكانت بين (المعتضد) وبين (باديس بـن حبوس) صاحب غرناطه، حروب، الى أن مات المعتضد سنة (٤٦١هـ) وولي من بعده ابنه (المعتمد) فسار هذا على سنن أبيه ، واستولى على دار الخلافة (قرطبة) من يد (ابن جهـور) وفرق أبناءه على قواعد الملك ، وأنزلهم بها . واستفحل ملكه بغرب الأندلس ، وعلت يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف . مثل (ابن باديس بن حبوس ـ بغرناطة) ، و (ابن الأفطس ـ ببطليـوس) و (ابن صمارح ـ بالمرية) وغيرهم . وكانوا يطلبون سلمه ، ويعملون في مرضاته ، وكلهم يداورون الطاغية النصراني ملك قشتالة ويتقونه بالجزية .

هكذا ، أقام المعتضد دعائم دولته ، على الرهبة لا على الرغبة ، وعلى فرض الاحترام لا على المحبة . وورث (المعتمد) دولة واسعة الأرجاء ، غير أنه كان ينقصها عاملان هما (الوحدة الداخلية) اذا ما جاز التعبير ، و (القدرة على مجابهة العدو الخارجي) الممثل بدولة قشتالة . وكان تحقيق هذين العاملين يتطلب مرحلة من الاستقرار ، وفترة زمنية كاملة ، بقدر ما يحتاج أيضاً الى العزيمة الصلبة ، والارادة الحازمة ، والرؤية الواضحة للأمور ، وإذا كانت هذه الفضائل متوافرة (للمعتمد) ، فإن عامل الوقت هو ما كان ينقصه . ولذا فقد كان عليه الدخول في صراع مع الزمن .

٢ ـ المعتمد بن عباد

ولد المعتمد في مدينة (باجة)[١] ونشأ نشأة عربية ـ إسلامية ، في وسط جو من الاضطراب السياسي ، والتمزق الاجتماعي ، والصراعات المسلحة ، وكان لا بد لذلك كله من أن يترك أثره العميق في نفس الفتى الشاب وهو ينضج بسرعة مذهلة ليحمل أعباء مسؤولياته ، وقد أكسبه ذلك قدرة على التعامل مع المواقف المختلفة ، بكفاءة عالية . وقد انتهج لنفسه منهجاً خاصاً ، لتوطيد دعائم الدولة ، حتى باتت دولة (بني عباد) لا تذكر إلّا باسمه ، وحتى بات اسمه مقترناً بمجد دولة (بني عباد) وعزتها وقوتها .

وقد أفاضت المصادر الاندلسية في ذكر المعتمد ، ومن ذلك :

« المعتمد على الله ، أبو القاسم ، محمد بن المعتضد أبي

---

(١) باجة : (BEJA) مدينة في البرتغال ، تقع جنوبي ـ شرقي ليشبونة ، وعلى بعد (١٤٠ كم) منها . وكانت تضم كورة واسعة (ناحية) وهي متصلة بكورة (مارده) .

عمرو عباد ابنِ القاضي أبي القاسم بن عباد : ملك مجيد ، وأديب على الحقيقة مجيد ، وأنسى بسيبه ذكر الحارث بن عباد ، فأطلع أيامه في أيامه في الزمان حجولاً وغرراً . ونظم معاليه في أجيادها جواهر ودرراً . همام تحلى به للملك لَبة وللنظم جيد ، أفنى الطغاة بسيفه وأباد . شيد في كل معلوة فناءه ، وعمر بكل نادرة مستغربة ، وبادرة مستظرفة أوقاته وآناءه ، فنفقت به للمحامد سوق ، وبَسَقَتْ ثمرات إحسانه أيَّ بسوق ، مَنَع وقرى ، وراش وبرى ، ووصل وفرى ، وكان له من أبنائه عدة أقمار ، نظمهم نظم السلك ، وزين بهم سماء ذلك الملك . فكانوا معاقل بلاده ، وحماة طارفه وتلاده ، إلى أن استدار الزمان كهيئته . وأخذ البؤس في فيئته ، واعتز الخلاف وظهر ، وسل الشتات سيفه وشهر ، والمعتمد يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات ، إلى أن اتسع الخرق على الراقع ، فاستعضد بابن تاشفين » .

وقال الفقيه القاضي أبو بكر بن خميس حين ذكر تاريخ بني عباد :

«لقد ذكر الناس للمعتمد من أوصافه، ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه . كان جم الأدب رائقه ، عالي النظم فائقه » . آل إليه الأمر عند موت أبيه المعتضد وفي ذلك قال الحصري :

مَاتَ عَبَّادِ وَلَكِنْ بَقِي الفرعُ الكَرِيمُ
وَكَأَنَّ المَيْتَ حيٌّ غَيْرَ أَنَّ الضَادَ مِيْمُ

وفي ذلك أيضا كتب مصدر أندلسي[1] :

« المعتمد ، ملك قمع العدا ، وجمع البأس والندى ، وطلع على الدنيا بدر هدى ، لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه ، آونة يراعه ، وآونة سنانه ، وكانت أيامه مواسم وثغوره بواسم . ولياليه كلها درراً ، وللزمان حجولاً وغرراً ، لم يغفلها من سمات عوارف ، ولم يضحها من ظل إيناس وارف . ولا عطلها من مأثرة بقي أثرها بادياً ، ولقي معتفيه منها إلى الفضل هادياً ، وكانت حضرته مطمحاً للهمم ، ومسرحاً لآمال الأمم ، ومقذفاً لكل كميٍ ، وموقفاً لكل ذي أنفٍ حَمي ، لم تخل من وفد ، ولم يصح جوها من انسجام رفد . فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماة ، ومشاهير الحماة أعداد يغص بهم الفضاء ، وأنجاد يزهى بهم النفوذ والمضاء . وطلع في سمائه كل نجم متقد ، وكل ذي فهم منتقد ، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان ، ومضماراً لإحراز الخصل ، في كل معنى وفصل . فلم يلتحق بزمامه إلا كل بطل نجد ، ولم يتسق في نظامه إلا ذكاء ومجد ، فأصبح عصره أجمل عصر ، وغدا مصره أكمل مصر . تسفح فيه ديم الكرم ، ويفصح فيه لساناً سيف وقلم ، ويفضح الرضى في وصفه أيام ذي سَلَمْ . وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة زيناً ، ولتلك الجملة عيناً ، إن ركبوا خِلْتَ الأرض فلكاً ـ يحمل نجوماً ، وإن وهبوا رأيت الغمائم سجوماً ، وإن أقدموا أحجم ـ عنترة العبسي ـ وإن فخروا أفحم ـ عرابة الأوسي ـ . ثم انحرفت الأيام ، فألوت بإشراقه ، وأذوت يانع إيراقه ، فلم يدفع

---

(1) نفح الطيب ٤/٢٤٢ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ و ٢٤٨ .

الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام ، فتملك بعد الملك ، وحط من فلكه الى الفلك الخ . . » .

يمكن مقارنة هذه اللوحة التي رسمت (للمعتمد) بتلك التي رسمت لوالده (المعتضد) والتي جاء فيها :

« المعتضد أبو عمرو عباد ، رحمه الله تعالى ، لم تخل أيامه في أعدائه من تقييد قدم ، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم ، حتى لقد كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلّا رؤ وساً . ولا تنبت إلّا رئيساً ومرؤ وساً ، فكان نظره إليها أشهى مقترحاته ، وفي التلفت إليها استعمل جُل بكره وروحاته ،فبكى وأرَّق ، وشتت وفرق . ولقد حكـي عنه من أوصاف التجبر ما ينبغي أن تصان عنه الأسماع ، ولا يتعرض له بتصريح ولا إلماع . . » .

غير أن الأمر الذي لا يمكن إنكاره هو أن ما تركه (المعتضد) من الحقد ضد بني عباد قد بلغ من الشدة أحياناً درجة لم يتمكن المعتمد من القضاء عليها أو إزالة رواسبها ، وقد وجد هذا الحقد تعبيراً له في التآمر ضد المعتمد ـ لدى ابن تاشفين ـ خاصة ، كما سيأتي ذلك ، كما وجد له تعبيراً في أقوال بعض الشعراء ، مثل :

مما يزهدني في أرض أندلس أسماءُ معتضد فيهـا ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

ويقابل هذا القول ، ويناقضه قول الشاعر :

مَنْ بني منذرٍ ؟ وذاك انتساب زاد في فخـرهم بنـو عبـاد

فتية لم تلد سواها المعالي   والمعـالي قليلة الأولاد[1]

واذا كان هناك خلاف في المواقف من بني عباد ، فهناك ما يشبه الإجماع على أن المعتمد قد نجح بصورة باهرة في سياسته الداخلية . ومن ذلك ما وصف به : « لقد كان ـ المعتمد ـ أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثماداً ، وأرفعهم عماداً . ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء ، حتى أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء ، وأفاضل الأدباء ، ما كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشية جنابه » . وقال ـ ابن بسام ـ في الذخيرة : « للمعتمد شعر ، كما انشق الكمام عن الزهر . لو صار مثله ممن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة ، لكان رائقاً معجباً ، ونادراً مستغرباً » .

والمعتمد ، يعرف وهو يبني جبهته الداخلية ، أن هذه الجبهة هي الأرض الصلبة لمجابهة العدو الخارجي ، فهو لا يرى في ضم المدن والأقاليم المستقلة ، إلى مملكته ، سوى وسيلة لزيادة القدرة القتالية ، وهو ما تشهد به مقولته عندما انضمت اليه (رنده) ، حيث قال :

لقـد حُصِّلتِ يا رنـده   فصـرت لملكنـا عـدة
أفـادتنـاكِ أرمـاح   وأسيـاف لهـا حـدة

والمعتمد ، قبل ذلك وبعده ، إنسان حقيقي ، محب

---

(١) نفح الطيب ٤/٢٥٥ و ٣٧٢ .

للحياة ، محب للطبيعة ، محب للخير ، محب للناس . يتفجر باستمرار ، عقلاً راجحاً وَعاطفة متدفقة ، شاعر وفارس كما كان الإنسان العربي مطبوعاً . وكذلك ربى أولاده ، فكانوا أبراراً خيرة . زهت بهم مملكة بني عباد وزهوا بها ، فكانوا أغنية حلوة باسمة على فم الأندلس في أحلك أيام أندلس المسلمين وأقساها . وللمعتمد شعر كثير ، في كل مناسبة ، سواء في وصف الطبيعة ، أو في المناسبات ، كان كل قوله شعراً متدفقاً مطبوعاً . ولا غرابة في أن يجد فيه بعد ذلك ، الشعراء والأدباء ، ملجأ وملاذا .

٣ ـ يوسف بن تاشفين

كان اولئك الملثمون ملوك الصحارى من لمتونة ، على دين المجوسية ، الى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة للهجرة . وجاهدوا جيرانهم من السودان ، على الإسلام ، فدانوا لهم ، واستوثق لهم الملك . ثم افترقوا . وكانت رياسة كل بطن منهم في بيت مخصوص. فكانت رياسة لمتونة في(بني ورتانطق ابن منثوز بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رتمال ابن تلميت ـ وهو لمتونة) . ولما أفضت الرياسة إلى (يحيى بن ابراهيم الكندالي) وكان له صهر في (بني ورتانطق) هؤلاء ، وتظاهروا على أمرهم . وخرج يحيى بن ابراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سنة (٤٤٠ هـ) فلقوا في منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكي (أبو عمران الفاسي) واغتنموا ما متعوا به من هدية ، وما شافههم به من فروض أعيانهم من فتاويه . وسأله الأمير يحيى أن يصحبهم من تلميذه من يرجعون إليه في قضايا دينهم ، فندب تلميذه إلى ذلك حرصاً على إيصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه ، فاستوعروا مسغبة بلادهم . وكتب لهم

الفقـيه (أبو عمران) إلى الفقيه (محمد وكاك بن ز لوا اللمطي) في (سجلماسة) من الآخذين عنه ، وعهد اليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه ، ويروض نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه ، فبعث معهم (عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي) . ووصل معهم يعلمهم القرآن ، ويفقههم في أمور الدين .

ثم توفي (يحيى بن ابراهيم) وافترق أمرهم . واطرحوا (**عبد الله بن ياسين**) واستصعبوا علمه ، وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف ، فأعرض عنهم واعتزلهم ، غير ان (**يحيى بن عمر بن تلاكاكين**) من رؤساء لمتونة وأخوه (**أبو بكر**) انضما إلى (عبد الله بن ياسين) واقتحموا عليه عزلته ، ومضوا به بعيداً عن الناس في ربوة ، ينهلون من علمه ، منفردين للعبادة ، فيلحق بهم من دخل الإيمان قلبه . حتى إذا ما كمل عددهم ألفاً من الرجال ، قال لهم شيخهم (عبد الله بن ياسين) «إن ألفاً لن تغلب عن قلة» . وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك . فخرجوا ، وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل (لمتونة) و (كدالة) و (مسوفة) حتى أنابوا إلى الحق واستقـامـوا على الطريقة ، وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين . وسماهم (بالمرابطين) وجعل أمرهم في العرب إلى (الأمير يحيى بن عمر) فتخطوا البلاد الصحراوية إلى بلاد (درعة) و (سجلماسة) من (مغراوة) فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا . ثم كتب اليهم (وكاك اللمطي) بما نال المسلمين من العسف والجور على أيدي (بني وانودين) في (سجلماسة) وحرضهم على تغيير أمرهم . فخرجوا من الصحراء

(سنة ٤٤٥ هـ) في عدد ضخم ، ركباناً على المهارى أكثرهم ، وعمدوا الى (درعة) . ونهض اليهم (مسعود بن وادين) أمير (مغراوة) وصاحب (سجلماسة) و (درعة) لمدافعتهم عنها وعن بلاده . فتواقعوا ، وانهزم (ابن وانودين) وقتل . واستلحم عسكره مع أموالهم ، واستلحمهم ودوابهم ، و(إبل الحمى) التي كانت ترعى بحمى درعة،وقصدوا(سجلماسة) فدخلوها غلابا ، وقتلوا من كان بها من فل (مغراوة) وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات ، وأسقطوا المغارم والمكوس ، واقتضوا الصدقات ، واستعملوا عليها منهم ، وعادوا إلى صحرائهم .
ومات يحيى بن عمر (سنة ٤٤٧ هـ) وقدم مكانه أخاه (أبو بكر) ، وندب (المرابطين) الى فتح المغرب ، فغزا بلاد (السوس) سنة (٤٤٨ هـ) ، وافتتح (ماسة) و (تارودانت) وجميع معاقله . ثم افتتح مدينة (أغمات) سنة (٤٤٩ هـ) . وتابع (أبو بكر) فتوجاته ، واستولى على (ماسة) و(تارودانت) وبلاد المصامدة في (جبال درن) و(تامستا) و(إنفا) جهات الريف المغربي .وأثناء ذلك استشهد (عبد الله بن ياسين سنة ٤٥٠ هـ) . فعين المرابطون مكانه في مشيختهم (سليمان بن عدو)للرجوع إليه في أمور دينهم،غير أن هذا لم يلبث أن توفي بعد سنة . وتابع (أبو بكر) قيادة الجهاد فافتتح (لواته) سنة (٤٥٢ هـ) . وحدث خلاف عندها بين (لمتونة) و(مسوفة) ببلاد الصحراء . فخشي أبو بكر اختلاف الكلمة وتفرق الشمل ، وأسرع بالعودة الى الصحراء ، بعد أن ترك على المغرب ابن عمه **يوسف بن تاشفين** . ونجح أبو بكر في إخماد نار الفتنة ،

وتوجيه قومه إلى جهاد السودانيين فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم .

أقام (يوسف بن تاشفين) بأطراف المغرب ، واستنزل صاحب قلعة (فاس) وأخذ رهنها على الطاعة . ثم سار في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب . **واختط مدينة (مراكش) سنة (٤٥٤ هـ)** ونزلها بالخيام ، وأدار أسوارها على مسجد ، وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه ، وأكمل تشييدها وأسوارها ابنه من بعده سنة (٥٢٦ هـ) . وجعل يوسف مدينة مراكش لنزل عسكره ، وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في (جبل درن) . وهي القبائل التي لم يكن في قبائل المغرب أشد منها بأساً ، ولا أكثر جمعاً ـ وهم بطن من زناتة ـ . فنازل يوسف قلعة (فازاز) ثم زحف إلى (فاس) فخرج اليه حاكمها ، وحدثت معركة انتصر فيها (يوسف) الذي تابع طريقه ، فافتتح جميع الحصون المحيطة بمدينة (فاس) ، ثم استولى على (صفروى) وعاد فافتتح (فاس) صلحاً (سنة ٤٥٥ هـ) . وخرج بعد ذلك لقتال (غمارة) وفتح كثيراً من بلادهم ، وأشرف على (طنجة) واستمر يتنقل في بلاد (المغرب) فافتتح (بني مراسن) ثم (فنزلاوه) ثم بلاد (ورغة) سنة (٤٥٨ هـ) . ثم افتتح بلاد (غمارة) سنة (٤٦٠ هـ) .

وفي سنة (٤٦٢ هـ) نازل (فاس) التي تمردت عليه ، فحاصرها مدة ، ثم افتتحها عنوة ، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من (مغراوة) و (بني يغرن) و (مكناسة) و(قبائل زناتة) حتى

أعوزت مدافنهم فرادى ، فاتخذت لهم الأخاديد ، وقبروا جماعات . وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد (تلمسان) وأمر بهدم الأسوار التي كانت فـاصلة بين (القرويين) و(الاندلسيين) من عدوتيها ، وصيّرها مصراً واحداً . وأدار عليها الأسوار ، وحمل أهلها على الاستكثار من المساجد ، ورتب بناءها . وارتحل سنة (٤٦٣ هـ) الى (وادي ملوية) فافتتح بلادها ، وحصون (وطاط) من نواحيها . ثم نهض سنة (٤٦٥ هـ) الى مدينة (الدمنة) فافتتحها عنوة . ثم افتتح (حصن علودان ـ من حصون غمارة) . ثم نهض سنة (٤٦٧ هـ) الى جبال (غياثة) و(بني مكود ـ من أحواز تازا) فافتتحها ودوخها ، ثم قسم المغرب عمالات على بنيه وامراء قومه وذويه . ووجه قوة بقيادة قائده (صالح بن عمران) ومعه ابنه (ضياء الدولة) لفتح (سبتة) . وانتصر جيش المرابطين في معركة وقعت بظاهر طنجة . ثم وجه (يوسف بن تاشفين) جيشاً بقيادة قائده (مزدلي ابن تبلكان) سنة (٤٧٢ هـ) الى المغرب الاوسط ـ الجزائر حالياً ـ فدوخ هذا الجيش بلاد المغرب الاوسط حتى وصل الى بلاد زناتة . وانكفأ راجعاً من غزوته . ثم نهض (يوسف) سنة (٤٧٣ هـ) الى بلاد الريف . وافتتح (كرسيف) و(مليلة) وسائر بلاد الريف ، وخرب مدينة (نكور) فلم تعمر بعد ذلك . ثم نهض في عساكره (المرابطين) الى بلاد المغرب الأوسط ، فافتتح مدينة (وجدة) وبلاد بني (يزتاسن) . وافتتح مدينة (تلمسان) فصارت ثغراً لملكه . وافتتح مدن (تنس) و(وهران) و(جبل وانشريس) حتى (الجزائر ـ المدينة) وانكفأ راجعاً الى

المغرب[1] وبذلك باتت قوات المرابطين مسيطرة سيطرة تامة على كافة المغرب (مراكش) حتى حدود الصحراء . والقسم الاكبر من غرب الجزائر .

لما ملك يوسف بن تاشفين بلاد المغرب ، وبنى مدينتي (مراكش - و - تلمسان الجديدة) وأطاعته البربر ، مع شكيمتها الشديدة ، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة ، تاقت نفسه الى العبور لجزيرة الاندلس فَهَمَّ بذلك ، وأخذ في بناء السفن والمراكب ليعبر فيها . فلما علم بذلك ملوك الأندلس ، كرهوا إلمامه بجزيرتهم وأعدوا له العدة والعدد ، وصعبت عليهم مدافعته ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين ، الفرنج من شمالهم ، والمسلمين من جنوبهم ، وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم ، تغير وتنهب ، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين . والفرنج ترهب ملك المغرب (يوسف بن تاشفين) إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم لنفاذ أمره ، وسرعة تملكه بلاد المغرب ، وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت ، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقد الفارس ، والطعنات التي تنظم الكلى ، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتاله . وكان ملوك الاندلس يفيئون إلى ظله، ويحذرونه في الوقت ذاته، خوفاً على ملكهم ، إذا ما عبر إليهم ، وعاين بلادهم . فلما رأوا ما دلّهم

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - ابن خلدون - دار الكتاب اللبناني - ١٩٦٨ (ص ٣٧٣ - ٣٨١ من المجلد السادس) .

على عبوره إليهم ، وعلموا ذلك ، راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمره ، وكان مفزعهم في ذلك الى المعتمد بن عباد ، لأنه أشجع القوم ، وأكبرهم مملكة . فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم ، يسألونه الإعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته . فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً ، فيه :

« أما بعد ، فانك إن أعرضت عنا نسبت الى كرم ولم تنسب الى عجز ، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة ، وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ، والسلام » .

وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي ، لكنه ذكي الطبع ، يجيد فهم المقاصد . وكان له كاتب يتقن اللغتين العربية والمرابطية - البربرية - . فلما استلم كتابَ الأندلسيين ، مع أجمل التحف والهدايا ، أعطى الكتابَ للمترجم ، فقال له :

« أيها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرّفونك انهم أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي ، فإنهم مسلمون ، وذوو بيوتات ، فلا تغير بهم ، وكفى بهم مَنْ ورائهم مِنَ الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل الغرب » .

فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه : فما ترى أنت ؟ فقال : أيها

الملك ! اعلم أن تاج الملك وبهجته شاهده الذي لا يُرد ، فإنّه خليق بمن حصل في يده من الملك والمال ، أن يعفو إذا استُعفي ، وأن يهب إذا استُوهب ، وكلما وهب جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم ، فإذا عظم قدره تأصل ملكه ، وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ، وإذا كانت طاعته شرفاً ، جاءه الناس ، ولم يتجشم المشقة إليهم ، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته ، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد » .

فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان (يوسف) بلغته ، فهمه وعلم صحته . فقال للكاتب : أجب القوم ، واكتب بما يجب في ذلك ، واقرأ عليّ كتابك . فكتب الكاتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من يوسف بن تاشفين ،

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من سالمكم وسلّم عليكم ، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصين منا بأكرم إيثار وسماحة . فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم .

والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام » .

* * * *

فرغ الكاتب من كتابة رسالته ، وقرأها على يوسف بن تاشفين

بلسانه ، فاستحسنها ، وقرن بها ما يصلح لهم من التحف ، ودرق اللمط التي لا توجد الا ببلاده ـ دروع جلدية ـ وأنفذ ذلك إليهم . فلما وصلهم ذلك ، وقرأو كتابه ، فرحوا به ، وعظموه ، وسُرّ بولايته ، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم ، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم ، أنهم يرسلون الى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم ، أو يمدهم بإعانة منه[١] .

* * * *

كانت أندلس المسلمين في تلك الفترة تضطرم ناراً ، فقد تجرأ العدو على حدودها ، وأوغل في مدنها وقراها . وأدرك الاندلسيون ما يحيق بهم من أخطار ، أوجـزها أحدهم بقوله :

«ولم تزل هذه الجزيرة الاندلسية منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق ، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق ، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه ، وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفرسه . فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ، ويحاربه في عقر داره إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي ، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي ، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة ، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة »[٢] .

وهذا ما حمل شاعر أندلسي على القول :

---

(١) نفح الطيب ٣٥٤/٤ ـ ٣٥٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٤٦ و ٤٤٧ .

الرومُ تضرب في البلاد وتغنم والجور يأخذ ما بقي والمغرمُ
والمال يورد كله قشتـاله والجند تسقط والرعية تسلَمُ
وذوو التعيين ليس فيهم مسلم إلا معين في الفساد مُسَلِّمُ
أسفي على تلك البلاد وأهلها الله يلطف بالجميع ويرحمُ

وكان لقشتالة أيام ضد المسلمين في بطرنة وبربشتر ثم في طليطلة هزت ضمائر المسلمين ، وأطلقت ألسنـة أدبائهم وشعرائهم ، فكان مما قيل بهذا الصدد :

يا أهْلَ أَنْدَلُس حثوا مَطِيَّكُمْ فما المقام بها إلا من الغَلَط
الثوبُ ينسّل من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرةِ مَنْسولاً من الوَسَط
ونحنُ بَيْنَ عَدُوٍ لاَ يُفارِقنَا كيْفَ الحيَاةُ معَ الحيّات في سَفَط

وإذا كان هذا الشعر يعبّر عن روح سلبيته ، انهزامية ، فقد كان بالمقابل رد فعل ايجابي ، يظهر في الأبيات التالية :

يا أهلَ أندلس رُدُّوا المعَار فَما في العُرْفِ عَارِيةٌ إلا مردات
ألم تَرُوا بيدق الكفار فرزنه وشاهنا آخر الأبيات شهمَاتِ

وكذلك :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألـوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن (ببطرنة) ما كانا

وإذن ، فقد كان هناك خلل في العلاقات ، ناجم عن العدوان الخارجي ، وكان لا بد لهذا الخلل من إحداث تحولاتٍ حاسمة . وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عن عوامل هذا الخلل وظواهره .

٤ ـ الموقف على (جبهة الشمال) الأندلسي

تتفق المصادر العربية الاندلسية والمصادر الغربية ، في ذكر الأحداث ووقائعها ، وتختلف فيما بينها بذكر بعض التفاصيل أو التعرض لها ، غير أن مجال الاختلاف الاكبر هو في تفسير تلك الأحداث وتأويلها وشرحها والتعليق عليها ، وهذا أمر بديهي ومتوقع ، وعلى هذا فمن الطبيعي اللجوء الى المصادر العربية ـ في البحث هنا ـ نظراً لما يتوافر لهذه المصادر من الدقة والموضوعية والأمانة في الوصف والتحليل .

فلقد بات من الثابت أن تطوير الصراع المسلح في الاندلس ، بما تم التعبير عنه ووصفه (بحركة الاسترداد ـ أو إعادة الفتح ـ لاروكونكيستا) قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحرب الصليبية والشاملة التي بدأت في (الاندلس) ثم انتقلت إلى المشرق العربي ـ الإسلامي ، واستمرت خلال ذلك وبعده على مسرح الاندلس، إلى أن انتهت بإخراج الصليبيين من بلاد الشام وإخراج المسلمين من الأندلس بعد ذلك بثلاثمائة عام ونيف .

وقد اتبع الصليبيون في ذلك أُسسَ استراتيجية واضحة

المعالم ، محددة الأبعاد ، تعرضت لها المصادر الأندلسية ، بما يلي :

« لقد طرقت الدهياء في ذلك القطر الاندلسي الذي ليس له في الحسن مثال ، ونسل الخطب إليه من كل حدب وانثال ، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه ، ومقدميه وقضاته وأمرائه ووزرائه ، فكلٌ يروم الرياسة لنفسه ، ويجر نارها لقرصه ، والنصارى ـ لعنهم الله تعالى ـ يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد ، ويضربون عَمْراً منهم بزيد ، حتى تمكنوا من أخذ البلاد ، والاستيلاء على الطارف والتلاد . . ومن استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى ، لم يدركوا في المسلمين ثاراً ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل ودياراً ، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف ، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة ، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها في الفتن المبيرة ، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة ، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة ، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب الى الله مزدلقة ، فالحرب إذ ذاك سجال . ولله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال ، وللمانعة في غرض المدافعة ميدان رحب ومجال ، وروية وارتجال . . . وتطاولت الأيام بين مهادنة ومقاطعة ، ومضاربة ومقارعة ، ومنازلة ومنازعة ، وموافقة وممانعة ، ومحاربة وموادعة ، ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالاسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضمار

المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ، **وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى ، ومهتم بمراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم ، وهو يسيرحسوا في ارتقائه ، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه** . فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال ،- وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال ، وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه . وعرض هذا المسموع على مدركات حسه ، وراجع أوليات عقله وتجريبات حدسه ، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه[1] » .

« يعلل أهل الاندلس أنفسهم بالباطل ، وإن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغورهم ، حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ، ويستقري بسائط بقاعهم ، ويقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم ، لهاة عن بثهم ، ما سمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مذكر لهم أو داع ، فضلاً عن نافر إليهم أو ماشٍ لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، أو كأن بَثْقَهم ليس بمغض إلينا ، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بُخلنا عليهم بالغناء ـ الدعم والنجدة ـ عجائب فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير . حتى سرى البَثْقَ إليهم جميعاً .

---

(١) نفح الطيب ٤/٥٠٧ ـ ٥٠٨ . و٤/٤٥٢ ـ ٤٥٤ .

ولقد استولى العدو على بربشتر[1] وهي مدينة تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، من عهد الفتوح الاسلامية بجزيرة الأندلس ، فرسخ فيها الإيمان ، وتُدُورس القرآن ، إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صدر رمضان من العام (٤٥٦ هـ) فصك الأسماع ، وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكل شغلاً يشغل الناس في التحدث به ، والتساؤ ل عنه ، والتصور لحلول مثله ، أياماً لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوكَل ، والاغترار بالأمل ، والاستناد إلى أراء الفرقة الهَمَل ، الذين هم منهم ما بين فشل وككل ، يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبسون عليهم وضوح الدليل .

ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين هم كالملح ، فيهم الامراء والفقهاء ، بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق ذياراً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم صدوف عما أكده الله تعالى عليهم من التبين لهم ، قد أصبحوا ما بين أكل من حلوائهم ، وخابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ في التقية في صدقهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم ، فما القول في أرض فسد ملحها الذي

(١) بربشتر : (BOBASTRO) من أمنع حصون الأندلس ، على بعد خمسة كيلو مترات الى الشمال ـ الغربي من (بليش ـ حالياً ـ VELEZ DE MALAGA) وقد كانت بسبب موقعها الحصين ، معقلاً للثوار والمتمردين طوال الحكم الاسلامي للاندلس .

هو المصلح لجميع أغذيتها ، وما هي إلا مُشفية من بوارها .
ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء ، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق ، وتعلية الأسوار ، وشد الأركان وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوأة السوّ أي من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليه ، أمور قبيحات الصور ، مؤذنات الصدور بإعجاز الغِيرَ :

أمـور لـو تـدبـرهـا حكيم إذن لنهى وَهَيَّتَ ما استطاعا

* * *

آ ـ متحولات الصراع

تظهر المقولات السابقة عوامل الضعف في جبهة مسلمي الاندلس وهي العوامل التي أسهم ملوك النصارى في الشمال على تغذيتها واستثمارها وتطويرها . كما تظهر أن الصراع المسلح لم يتبع في تطوره خطاً متصاعداً باستمرار ، وانما سار عبر طريق من الانتصارات والهزائم ، وعلى شكل ما يفرضه حوار الارادات المتصارعة . وفي الحقيقة ، فقد كانت هناك صراعات أيضاً بين ملوك نصارى الشمال وامرائهم ، فقد تشكلت (نـافار) و(جيلقية) و (اشتوريش ثم ليون) على فترات ، ونجح المسلمون في تدميرها مرات متتالية ، لتعود إلى الظهور من جديد تحت قيادة جديدة وبشكل جديد . ويمكن تجاوز تلك المراحل المبكرة للوصول الى سنة (٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م) ففي هذه السنة ، عبر ملك قشتالة وليون (فرديناند الأول) نهري (دويره) و(تورمس) واجتاح (لوزيتانيا) قاصية أراضي المسلمين من

الشمال الغربي . وكانت تابعـة لمملكة بـطليوس ، (بني الافطس) . وفي سنة (٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م) قام (فرناندو الأول) بعدوان جديد على بلاد المسلمين ، وأغار على مدينة (سالم) و (اوسيدا) و(طلمنكة) و(وادي الحجارة) و(قلعة النهر) فاستغاث أهلها بصاحب طليطلة (مأمون بـن ذي النون) فما كان من هذ إلا أن حمل مقادير كبيرة من الذهب والفضة وفاخر الأقمشة ، وسار بنفسه الى معسكر الملك النصراني ، وقدم إليه الهدايا ، وأعلن اعترافه بطاعته ، وتعهد بدفع الجزية ، فكانت هذه هي المرة الأولى التي يدفع فيها حاكم مسلم الجزية لملوك النصارى في الأندلس . ووجد (فرناندو الأول)[1] في ذلك ما شجعه على المضي في تطوير عدوانه ، فقام في السنة التالية (٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م) بالهجوم على مملكة أشبيليا ، وأرغم (المعتمد بن عباد) على أن يحذو حذو (المأمون) فيعترف بسيادته ، وقدفع له الجزية ، ثم عمل في السنة التالية على احتلال (قلمرية) وانتزاعها من قبضة المسلمين . وتوفي (فرناندو الأول) سنة (٤٥٧ هـ = ١٠٦٥ م) بعد أن قسم مملكته (قشتالة وليون) على أولاده الثلاثة ، فكان من نصيب ابنه الاكبر (سانشو ـ أو شانجه) مملكة قشتالة وحقوق الجزية على (سرقسطة) . وكان من نصيب ابنه الثاني (الفونسو) مملكيه (ليون) وحقوق الجزية على (طليطلة) أما الابن الاصغر (غرسيه) فقد أصبح ملكاً على

---

(١) فرناندو الأول : (FERNAND 1er« LE GRAND) ملك قشتالة سنة ١٠٣٣ ، وقد ضم اليه مملكة ليون سنة ١٠٣٧ ، ثم غاليسيه سنة ١٠٥٤ ، توفي سنة ١٠٦٥ .

(جيليقية ـ و ـ البرتغال) اللتين ضمتا في مملكة واحدة ، مع حق الجزية على مملكتي (أشبيليا ـ و ـ بطليوس) . كما حصلت ابنتاه على قلعتين تحكمانهما بشكل مستقل . وقام الابن الاكبر (سانسو ـ أو ـ شانجه) بالاستيلاء على (ليون) وطرد أخيه (الفونسو) الذي هرب الى طليطلة ، واحتمى بالمسلمين . ثم قام (سانشو) بالاستيلاء على (جيليقية) وضمها الى مملكته . وفي سنة (٤٦٥ هـ = ١٠٧٢ م) دبرت (اوراكا) مؤامرة ، فقتلت أخيها (سانشو) وساعدت أخاها (الفونسو) على استعادة ملكه ، فأصبح الفونسو ملكاً على (قشتالة ، وليون ، وجيليقية) باسم (الفونسو السادس)[1] وهو الذي استولى على طليطلة .

* * * * *

بينما كانت مملكة (قشتالة وليون) تعيش هذه المتحولات والاحداث ، كانت مملكة (جيليقية) - في شمال غرب الاندلس ـ تعيش احداثاً قد يكون من الضروري استقراء بعض ملامحها . ففي سنة (٤٥٦ هـ = ١٠٦٣ م) لقي ملك أراغون

---

(١) الفونسو السادس : (ALPHONS'E VI) ملك قشتالة ، وتحت حكمه عاش السيد (LE CID) ١٠٦٥ ـ ١١٠٩ . وهذا السيد هو : (سيد كامبودور : CID CAMPEADOR) أو (رودريك ـ دياز ـ دوبيفار .RODRIGUE - DIAZ. DE BIVAR) كما اشتهر بانه الفارس الاسباني الأول الذي تصدى لقتال المسلمين في القرن الحادي عشر . وقد أصبح اسم (السيد) بطلاً لعدد من الأعمال الأدبية والروايات الاسبانية الرومانسية ـ كما ألف (كورناي) الفرنسي رواية شهيرة عنه بشكل ـ تراجيديا ـ وتوفي (السيد) سنة ١٠٩٩ .

(راميرو الأول) مصرعه في (غرادوس)[1] على يد أحد المسلمين ، عندما قام بهجومه على بلادهم . وعلى أثر ذلك ، أعلن البابا (الاسكندر الثاني) أنه يمنح الغفران لكل مقاتل يحارب من أجل الصليب في اسبانيا . وبدأ البابا بتنظيم جيش لمتابعة أعمال (راميرو) . وأخذ المقاتل النورماني (الاردماني كما تسميه المصادر العربية) واسمه (وليم مونتراي)[2] في تطويع المقاتلين وتجنيدهم في جيش البابا ، وجمعهم من شمال ايطاليا . كما عمل (ابلس - كونت روسي) شقيق (فيليشيا) ملكة أراغون ، على جمع المقاتليين النورمان من شمال فرنسا . لكن هذه الحملة لم تحقق النجاح الذي كان يتطلع اليه البابا .

أعاد (ابلس - كونت روسي)[3] تنظيم حملة جديدة من الفرنسيين . ودعى البابا (غريغوري السابع) أنصار المسيحية جميعهم لدعم هذه الحملة والانضمام اليها ، ووعد الصليبيين بمنحهم الغنائم التي سيستولون عليها من أيدي الكفار (المسلمين) . وفي سنة (٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م) تولى (هيو الأول - دوق بورغونديا) قيادة جيش لدعم صهره (الفونسو السادس) الذي أصبح ملكاً على (ليون - و - قشتالة) . وفي سنة (٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م) أعلن البابا (غريغوري السابع) دعمه الشخصي ومباركته للحملة التي قادها (جاي جفري) ضد مسلمي

---

(١) غرادوس : (GRADOS) .

(٢) وليم مونتراي : (WILLIAM DE MONTREUIL) .

(٣) ابلس - كونت روسي : (EBLES OF RUCY) .

الاندلس وفي سنة (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) استولت هذه الجيوش المتحالفة على طليطلة . ولعله من الضروري التوقف قليلاً عند ملامح الاعمال القتالية لهذه الجيوش ، وطرائقها ، نظراً لما كان لذلك من أثر على مجريات الصراع .

* * * *

ب ـ وقعة بطرنة (٤٥٦ هـ)

انتدب الفرنج منهم قطعة كثيفة ، ونزلت على (بلنسية) وأهلها جاهلون بالحرب ، مغترون بأمر الطعن والضرب ، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب ، وتظاهر الفرنج بالندم على منازلتها ، والضعف عن مقاومة من فيها . وخدعوهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعوهم فطمعوا ، وكمنوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلاد بثياب زينتهم ، وخرج معهم أميرهم (عبد العزيز بن أبي عامر) فاستدرجهم العدو ، ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر ، وما نجا منهم إلا من حصنه أجله .

ج ـ الصراع على (بربشتر) ٤٥٦ هـ

بربشتر هي قصبة ـ عاصمة ـ برطانية ، وهي تقرب من سرقسطة . تغلب عليها جيش (الاردمانيين)[1]. وقصر يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها فوكل أهلها إلى نفوسهم . فأقام

---

(١) الاردمانيين : (NORDMANNI) وقد ذكرتهم بعض المصادر العربية ـ ابن حبان ـ باسم (الأردمليس) .

العدو عليها أربعين يوما . ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، وعلم العدو بذلك ، فشدد القتال عليها والحصر لها ، حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف فارس مدرع . فدهش الناس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حرب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجي . ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الارض بتقدير موزون ، انهارت وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة ، ويئس من بها من الحياة ، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة ، دون ميال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع إلا القائد (ابن الطويل) والقاضي (ابن عيسى) في نفر من الوجوه . وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى . حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو لحصنه ـ وهو قائد خيل روما ـ نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارا . ومن أوقار الأمتعة والحلي والكسوة خمسمائة جمل . وقدر من قتل وأسر بمائة ألف نفس . وكان السبب في قتلهم أن العدو قد شاهد من كثرتهم ما هاله وأخافه ، فشرع في القتل ، حتى أفنى نيفاً وستة آلاف قتيل . ثم نادى الملك بتأمين من بقي ، وأمر أن يخرجوا ، فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم . ونزلوا من الأسوار في الحبال ، للخشية من الازدحام في الأبواب ، ومبادرة إلى شرب الماء ، وكان قد تحيز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه ، وحاروا في نفوسهم ، وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الابواب والأسوار وهلك في الزحمة ،

نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله ، وله الأمان ، وأرهقوا وأزعجوا ، فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله اقتسمـهم الإفرنج بأمر الملك ، وأخذ كل واحد داراً بمن فيها من أهلها . وكان من أهل المدينة جماعة قد لاذوا برؤوس الجبال ، وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم ، وبرزوا في صور الهلكى من العطش ، فأطلق سبيلهم ، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ، فقتلوهم إلا قلة منهم .

وكان الافرنج لما استولوا على أهل المدينة ، يفتضون البكر بحضرة أبيها ، ويغتصبون الثَيِّبْ أمام زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان . ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش ، أعطاهن خَوَله وغلمانه يعيثون فيهن عيثة . وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة . ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلدة تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ، ليهديهم إلى من فوقه ، وترك من رابطة خيله (ببربشتر) ألفا وخمسمائة ، ومن الرجال ألفين .

جاء بعض تجار اليهود الـى بربشتر بعد الحادثة ملتمسا فدية بنات بعض الوجوه ، ممن نجى من أهلها ، وقعن في أسر قائد (قومس) من الرابطة المقيمة فيها . وقال أحد هؤلاء اليهود :

أمكن لي معرفة المنزل الذي يقم فيه هذا القومس ،

واستأذنت في الدخول اليه ، فوجدته جالساً مكان رب الدار ، مستوياً على فراشه ، رافلاً في نفيس ثيابه ، والمجلس والسرير كما تخلفهما ربهما يوم محنته ، لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما . ووصائفه مضمومات الشعور ، قائمات على رأسه ، ساعيات في خدمته . فرحب بي ، وسألني عن قصدي ، فعرفته وجهة أمري وأشرت إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي ، فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك ! أعرض عمن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سبيي وأسراي أُقارِبْك فيمن شئت منهن . فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه ، وبقربك أنست ، وفي كنفك اطمأننت ، فسمني ببعض من هنا . فإني أصير الى رغبتك . فقال : وما عندك ؟ قلت : العين ـ المال ـ الكثير ، والطيب ، والبز الرفيع الغريب . فقال : كأنك تشهيني ما ليس عندي . ونادى بعض اولئك الوصائف : يا مجة (ويريد يا بهجة ـ انما غيرها بعجمته) قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق . فقامت إليه ، وأقبلت ببدر ـ أكياس ـ الدنانير ، وأكياس الدراهم ، وأسفاط الحلى ، فكشف ، وجعل بين يدي العلج حتى كادت تواري شخصه . ثم قال لها : أدني إلينا من تلك التخوت ، فأدنت منه عدة من قطعِ الوشي والخز والديباج الفاخر ،مما حار له ناظري وبهت ، واسْترذلتُ ما عندي . ثم قال لي : لقد كثر هذا عندي حتى ما ألذ به . ثم حلف بإلهه انه لو لم يكن عنده شيء من هذا ، ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ـ التي طلبت فداءها ـ ما سخت بها يدي ، فهي ابنة صاحب المنزل ،

وله حسب في قومه ، اصطفيتها لمزيد جمالها . وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة ـ وأشار إلى جارية أخرى قائمة الى ناحية اخرى ـ فهي مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته . ونادى : يا فلانة ، خذي عودك وغني لزائرنا بشجوك . فأخذت العود ، وقعدت تسويه ، وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العلج مسحه . واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا ، فضلاً عن العلج ، فصار من الغريب أن حث شربه هو عليه وأظهر الطرب منه . فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنه ، وارتدتُ لتجارتي سواه . واطَّلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به . فهذا فيه مقنع لمن تدبره . وتذكر لمن تذكره » .

* * * *

ودارت السنة دورتها ، وفي عقب جمادى الاولى سنة ٤٥٧ هـ = ١٠٦٥ م . شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين الى (قرطبة) وذلك أن (أحمد المقتدر بن هود) المفرط فيها ، والمتهم على أهلها ، لانحرافهم إلى أخيه ، صمد لها مع إمداد لحليفه عباد (المعتمد) . وسعى لإصمات سوء المقالة عنه . وقد كتب الله عليه منها ما لا يمحوه الا عفوه . فتأهب لقصد (بربشتر) في جموع من المسلمين ، فجالدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان . وحمي الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه . وخذل أعداءه . وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوهم أجمعين ، إلا من فر من مكان الوقعة ولم

يدخل المدينة ، فأجيل السيف في الكافرين ، واستؤصلوا أجمعين ، إلا من استرق من أصاغرهم ، وَفُدِيَ من أعاظمهم ، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم ، وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارىء . وأصيب على منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصر الدين نحو الخمسين ، كتب الله تعالى شهادتهم ، وقتل فيه من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فغسلها المسلمون من رجس الشرك ، وجلوها من صدأ الإفك .

د ـ سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ)

كانت (طليطلة) من أول مدن الأندلس العظيمة التي استردها الإفرنج . وقد أخذها (الأذفونش ـ الفونسو السادس) من صاحبها (القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون) بعد أن حاصرها سبع سنين وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة٤٧٨هـ .

وطليطلة مدينة حصينة قديمة أزلية ، على ضفة نهر كبير ، ولها قصبة في غاية المَنَعة ، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان ، على قوس واحد . ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً ، وهي ترفع الماء على ظهرها فيدخل المدينة . وبنى صاحب طليطلة (المأمون يحيى بن ذي النون) بها قصراً تأنق في بنائه ، وأنفق فيه مالاً كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطاً بها ! متصلاً بعضه ببعض . فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمون ابن ذي النون قاعد فيها ، لا يمسه من الماء شيء . ولو شاء أن

يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد :

أتبني بناء الخالدين ، وإنما بقاؤك فيها ، لو علمتَ قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كلَّ يومٍ يعتريه رحيل

لقد توالت على أهل طليطلة الفتن المظلمة ، والحوادث المصطلمة ، وترادف عليهم البلاء والجلاء ، واستباح الفرنج أموالهم وأرواحهم ، ونفذ الزاد ، حتى استولى العدو على طليطلة ، وأنزل من بها على حكمه . وخرج منها ابن ذي النون منها على أقبح صورة ، وأفظع سيرة ،ورآه الناس وبيده اصطرلاب يأخذ به وقتاً يرحل فيه ، فتعجب منه المسلمون ، وضحك عليه الكافرون . وبسط الكافر العدل على أهل المدينة ، وحبب التنصر إلى عامة طغامها . فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله ، وشرع في تغيير الجامع وتحويله الى كنيسة . ومما جرى في ذلك اليوم ؛ أن الشيخ الاستاذ المغامي ـ رحمه الله تعالى ـ صار إلى الجامع ، وصلى فيه ، وأمر مريداً له بقراءة القرآن الكريم ، ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى وتكاثروا لتغيير القبلـة ، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته ، وعصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة ، وسجد سجدة ، ورفع رأسه ، وبكى على الجامع بكاء شديداً ، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه . وقيل لملك النصارى (الفونسو) ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك . فقال : حتى نأخذ قرطبتهم . وأعد لذلك ناقوساً تأنق فيه ، ورصع به من الجواهر[1] .

---

(١) نفح الطيب : ٤٤٧/٤ ـ ٤٥٢ و ٣٥٢ .

استولى (الفونسو السادس) في الوقت ذاته على مدينة مدريد (والتي يكتبها مؤرخو المسلمين ويعرفونها باسم مجريط) . غير أن وقع استيلاء الفرنج على (طليطلة) فاق كل حدود التصور ، وذلك نظراً للأهمية الدينية والمعنوية لعاصمة الشمال (حيث كانت عاصمة القوط قبل فتح المسلمين للاندلس) . وانطلق كتاب المسلمين وشعراؤهم في استثارة الضمائر، وتحليل الاوضاع التي أدت إلى هذه المأساة المريعة . وكان ذلك منطلقاً لنوع جديد من الادب (الشعر) لم يعرفه أو يمارسه العرب المسلمون من قبل ، وهو القصيدة الطويلة التي يمتزج فيها أدب الحرب ـ الحماسة ـ بالتحليل الاجتماعي والنقد السياسي للاوضاع السائدة المهم في الامر ، هو أن سقوط (طليطلة) لم يكن حدثاً عادياً في مسيرة الصراع بين مسلمي الاندلس ، ونصارى الشمال . وكان لا بد لهذا الحدث الضخم من أن يترك أصداء مثيرة تسهم في تطوير الصراع المسلح . فكان لسقوط (طليطلة) وما سبقها من استفزازات مثيرة ، ثم ما ارتكبه النصارى من الانتهاكات للمقدسات الدينية والاعتداءات على الاعراض والأموال ، مما لم يعرف المسلمون الاندلسيون من قبل ما يماثله في قوته ، وعمقه واتساعه ، علاوة على تطوير تلك الاستفزازات والانتهاكات ، دور حاسم في التحولات التي عرفتها اندلس المسلمين خلال السنة التالية لسقوط طليطلة في قبضة النصارى .

لقد بدأت عملية تصعيد الصراع المسلح مع استيلاء (الفونسو السادس) على السلطة وجمع الاقاليم الثلاثة للنصارى في الشمال (قشتالة وليون وجيليقية) وكان جهد (فرناندو

الأول) هو الذي مهد لابنه الفونسو الفرصة المناسبة لحشد قوات ضخمة تحت قيادة واحدة ضد المسلمين . وأمام هذا الموقف كان لا بد من البحث عن حل يضمن تحقيق شرطين أساسيين : ١ ـ اولهما تأمين دعم كبير بالقوى والوسائط لمجابهة قوة « نصارى الشمال » الذين كانوا يتلقون ، بالاضافة لقوتهم ،دعماً ضخماً من الكنيسة ومن الفرنج . ٢ ـ وثانيهما تنسيق على مستوى القيادة لمجابهة وحدة القيادة المتوافرة لنصارى الشمال . وكان مثل هذا الحل يتطلب قيادة مدركة لأبعاد الخطر الداهم ، بقدر ما يتطلب من هذه القيادة اخلاصاً واستعداداً للتضحية . وقد توافر ذلك (للمعتمد بن عباد) بقدر ما توافر (ليوسف بن تاشفين) . وهكذا بدأت مسيرة الاحداث بالتسارع : فاذا كانت المدة الفاصلة بين معارك بطرنه وبربشتر وبين الاستيلاء على طليطلة هي (٢٢) عاماً ، فان المدة الفاصلة بين الاستيلاء على طليطلة والموقعة التالية لها في الزلاقة لم تتجاوز السنة الواحدة . وهذا ما يؤكد التأثير العميق لسقوط طليطلة على مسيرة الصراع المسلح بين المسلمين ونصارى الشمال ، حيث حاول الطرف الأول ، الثأر لهزيمته والانتقام للمسلمين وعزتهم ، بينما حاول الطرف الثاني استثمار الظفر ، وتحقيق مزيد من المكاسب ، مستفيداً في ذلك من الأثر المادي والمعنوي الذي غنمه في انتصاره السابق ، باستيلائه على (طليطلة) .



الفصل الثاني

موقعة الزلاقة

١ ـ التحدي الكبير والاستفزاز
٢ ـ رعي الإبل خير من رعي الخنازير
٣ ـ لبيك ! وعبر المرابطون البحر
٤ ـ خديعة كافر يحبطها مسلم
٥ ـ موقعة الزلاقة
٦ ـ احتفالات النصر
٧ ـ المرابطون في الأندلس
٨ ـ الصفحة الأخيرة من حياة ابن عباد في اشبيلية وأغمات



١ ـ التحدي الكبير والاستفزاز

كان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس ، ومتملك أكثر بلادها مثل قرطبة وإشبيلية ، وكان مع ذلك يؤدي الضريبة إلى الأذفونش ـ الفونسو السادس ـ كل سنة . وتصادف أن اشتغل المعتمد بغزو (ابن صمادح ـ صاحب المرية) حتى تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش ، وأرسلها إليه بعد ذلك . لكن الطاغية استشاط غضباً وتشدد في الطلب . وأرسل له ـ يهودياً ـ يفاوضه ، ومعه جمع كثير ، نحو خمسمائة فارس ، ففرق المعتمد هؤلاء على قواد عسكره . وأحضر الرسول الذي طلب من المعتمد تسليم جميع الحصون المنيعة ، وأن يبقى السهل للمسلمين ، وزاد على ذلك الضريبة ، وأمعن في التجني ، فزعم أن القسس والأطباء قد أشاروا على الملك (الفونسو) بأن تأتي زوجته الحامل ـ القمطيجة ـ الى جامع قرطبة لتلد فيه ، نظراً لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم ، عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، كما طلب أن تنزل زوجة الفونسو ـ القمطيجة ـ بالمدينة الزهراء ، غربي مدينة قرطبة ، فتكون ولادتها

بين طيب نسيم الزهراء ، وفضيلة موضع الكنيسة من جامع قرطبة . غير أن هذه الطلبات ـ الاستفزازية ـ كانت أكبر من قدرة احتمال المعتمد ، فامتنع عن قبولها ، فراجعه الوزير اليهودي سفير الفونسو ، وأيأسه من ذلك ، وأغلظ له في القول ، وهدده بأن الفونسو سيسير الى قرطبة ليفتحها إن لم تستجب طلباته ، وغضب المعتمد ، فأخذ محبرة كانت بين يديه ، وضرب بها رأس اليهودي ، فأنزل دماغه في حلقه ، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة ، كما أصدر أمره الى قادته بقتل الفرسان الفرنج ، فقتل كل قائد من عنده من الكفرة . وأطلق سراح ثلاثة منهم حتى يعودوا إلى (الأذفونش) ويعلموه بالخبر .

استدعى (المعتمد) اليه الفقهاء والعلماء لمعرفة رأيهم فيما فعله باليهودي ـ وصحبه ـ فبادره الفقيه (محمد بن الطلاع) بالرخصة في ذلك ، لتعدي الرسول حدود الرسالة الى ما استوجب به القتل ، إذ ليس له أن يغلظ القول ، أو يتجاوز الحدود المتعارف عليها في نقل الرسالة . وعندما انصرف الفقهاء من حضرة المعتمد ، قال (محمد بن الطلاع) لصحبه الفقهاء : إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجاً .

كان (ألفونسو السادس) على رأس جيشه ، يقوم بتظاهرة عسكرية مهدداً بالتحرك نحو قرطبة ، عندما بلغه ما صنع (ابن عباد) فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية ويحاصره في قصره . وعاد الى (طليطلة) ليجمع آلات الحصار ، ويكثر العدد والعدة ، ويحشد للمعركة كل ما يستطيع حشده . ومضى في استعداداته

للحرب ، فاستنفر جميع أهل بلاده ، وما يليها ، وما وراءها ، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة ما لا يحصى عدده ، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع. وقدر عدد أفراد من حشدهم (الفونسو) بأربعين ألف دارع ، ولكل واحد أتباع . وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ، ويرون أنهم أكثر من ذلك بكثير .

عكف (الفونسو) على وضع خطته للعمليات . فجمع أهل مملكته ، وخاصته ، وأهل مشورته ، وقال لهم : « إني رأيت إن أنا مكنتهم من الدخول إلى بلادي، فناجزوني فيها وبين جدرها ، وربما كانت الدائرة عليَّ . يستحكمون البلاد ، ويحصدون من فيها غداة واحدة ، ولكني أجعل يومهم معي في حوزة بلادهم ، فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي ، وجبر لمكاسري . وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون فيَّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها » .

نظم (ألفونسو) قواته ـ بعد استعراضها ـ فشكل مقدمة بقيادته ضمت المختار من جنوده ، وأنجاد جموعه ، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم : « بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء » ثم قسم قواته الى جيشين ، جعل على أحدهما ـ كلباً من مساعير كلابه ـ وأمره أن يسير على كورة باجه ـ من غرب الأندلس ـ ويغير على تلك التخوم والجهات ، ثم يمر على (لبلة) إلى (أشبيلية) وجعل موعده إياه (طريانة) للاجتماع معه . ثم زحف (ألفونسو) بنفسه في جيش آخر ، فسلك طريقاً

غير الطريق التي سلكها الآخر ، وكلاهما عاث في البلاد وخرب ودمر ، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم (نهر آنة ـ أو غوديانا حالياً) بنواحي بطليوس ، وأقام (ألفونسو) معسكره ، وأخذ ينتظر وصول الجيش الإسلامي ، ويظهر أن انتظاره طال بعض الوقت ، فكتب رسالة إلى المعتمد جاء فيها :

«كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان ، واشتد عليَّ الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عن وجهي » . فوقع له ـ ابن عباد ـ بخط يده في ظهر الرقعة : « قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروّح منك ، لا تروح عليك ، إن شاء الله تعالى » .

فلما وصلت الأذفونش ـ الفونسو ـ رسالة ابن عباد ، وقرئت عليه ، وعلم مقتضاها ؛ أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال . وفشا في الأندلس توقيع (ابن عباد) وما أظهره من العزيمة على جواز (يوسف بن تاشفين ـ اللمطي) والاستظهار به على العدو ، استبشر الناس ، وفرحوا بذلك ، وفتحت لهم أبواب الآمال .

٢ - رعي الإبل خير من رعي الخنازير

أدرك (المعتمد) أنه لا بد له من حشد كل القوى التي يمكن حشدها لمجابهة قوى (نصارى الشمال) . ولما كانت قوى (الأندلسيين المسلمين) غير قادرة وحدها على مجابهة الهجوم الكبير الذي توافرت له قدرات دعم ضخمة ، فقد اتجه تفكيره للاستعانة (بالمرابطين) وأعلن عن تصميمه صراحة ، ولما تحقق (ملوك طوائف الأندلس) من عزم (ابن عباد) وانفراده برأيه في ذلك ، اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلمه مواجهة ، وحذروه عاقبة ذلك ، وقالوا له : « الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد » . فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً : « **رعي الجمال خير من رعي الخنازير** » . ومعناه : أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين ، أسيراً يرعى جماله في الصحراء ، خير من كونه مأكولاً ممزّقاً للأذفونش ، أسيراً له يرعى خنازيره في قشتاله .

وقال لعذاله ولوّامه :

« يا قوم ! إني من أمري على حالتين : حالة يقين ، وحالة

شك، ولا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فمن الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه ، أما الأذفونش ، فلن يفعل ، وأما حالة اليقين . فإني إن استندت الى ابن تاشفين فأنا أرضي الله ، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة ، فلأي شيء أدع ما يرضي الله ، وآتي ما يسخطه ؟ » فحينئذ قصر أصحابه عن لومه .

وإذا كان هناك تخوف قد ظهر على بعض (ملوك طوائف الأندلس) من الاستعانة بابن تاشفين فقد كان هناك بالمقابل تحرك واسع يدعم اتجاه ابن عباد ويؤيد سياسته . فقد ذكر أنه لما قتل المعتمد (رسل ألفونسو) تخوف أكابر الأندلس من ألفونسو ، واجتمع رؤساؤهم ، وساروا الى قاضي الجماعة بقرطبة (عبيد الله بن محمد بن أدهم ـ أبا بكر) وكان أعقل أهل زمانه ، وقالوا له :

« ألا تنظر إلى ما فيه المسلمين من الصِّغار والذلة وإعطائهم الجزية ، بعد أن كانوا يأخذونها ، لقد غلب على البلاد الفرنج ، ولم يبق إلا القليل ، وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت من قبل . وقد رأينا رأياً نعرضه عليك .

قال : وما هو؟

قالوا : نكتب إلى عرب أفريقية ، ونبذل لهم إذا وصلوا شطر أموالنا . ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله .

فقال لهم : إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما

فعلوا بإفريقية . ويتركوا الأفرنج ويبيدوا بنا . والمرابطون أصلح منهم ، وأقرب إلينا ،

فقالوا له : فكاتب أمير المسلمين ـ يوسف بن تاشفين ، واسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند .

فبينما هم في ذلك يتراوضون ، إذ قدم عليهم المعتمد بن عباد ، فعرض عليه القاضي ما كانوا فيه . فقال له ابن عباد : أنت رسولي إليه في ذلك ، فامتنع ، وإنما أراد أن يبرىء نفسه من ذلك ، فألح عليه المعتمد » .

لم يكن المعتمد منفرداً برأيه على كل حال ، وقد عمل على تنسيق التعاون مع (المتوكل عمر بن محمد ـ صاحب بطليوس) باعتبار أن مملكته هي أكبر مملكة بعد مملكة اشبيليا . وكذلك مع (عبد الله بن حبوس الصنهاجي ـ صاحب غرناطة) ؛ واتفق الثلاثة على تكليف قضاتهم بمهمة التوجه لمفاوضة ابن تاشفين . وعندما اجتمع قضاة (بطليوس وغرناطة وقرطبة)في اشبيلية ، أضاف اليهم المعتمد وزيره (أبا بكر بن زيدون) وعرفهم أربعتهم أنهم رسله الى يوسف بن تاشفين وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد . وأسند إلى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة من صلاحية إبرام الاتفاق . وأثناء ذلك كانت وفود الأندلس مستمرة في التوجه اليه (ابن تاشفين) حيث كان أفراد هذه الوفود يمثلون بين يديه ، مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، ووزراء دولته ، فيسمع إليهم ،

ويصغي لقولهم ، وترق نفسه لحالهم .

غادر وفد المعتمد أشبيليا ، وركب البحر حتى وصل (سبتة) فوجد رسل (يوسف) بالمرصاد ، ولما وصل الوفد إلى مقر ابن تاشفين أقبل عليهم ، وأكرم مثواهم ، وأظهر استعداده لتلبية النداء ، وأرسل على الفور الى مراكش في طلب من بقي من العساكر ، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً ، حتى تكاملت عنده ، واستمرت الاتصالات أثناء ذلك بين يوسف والمعتمد . ولما كانت السفن المتوافرة عند ابن تاشفين لا تكفي لعبور القوات الضخمة مع وسائط نقلها ، فقد وجه المعتمد اسطوله من (أشبيلية) الى (سبتة) ووضعه تحت تصرف يوسف بن تاشفين . وتقرر أن توضع (الجزيرة الخضراء) في الجنوب الأندلسي ، والتي كانت تحت حكم الراضي بن المعتمد لتكون منطقة حشد خاضعة لقيادة يوسف بن تاشفين . وهكذا اتخذت كافة الترتيبات الضرورية لانجاح عملية العبور . كما تم تنسيق التعاون بشكل رائع ، منذ البداية ، حتى لا تكون هناك أية عقبة تعيق تحرك القوات ، أو تمنعها عن أداء دورها بما هو مطلوب منها . وما ان انتهت الاستعدادات ، حتى عبر (المرابطون) وعلى رأسهم (ابن تاشفين) مضيق المجاز ، وكان عبور البحر سهلاً . فوصلت القوات الى الجزيرة الخضراء .

« وكان أول ما عبر ـ الجمال ـ إذ أمر يوسف بن تاشفين بعبور الجمال أولاً ، فعبر منها ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة ، رأوا جملاً قط ، ولا خيلهم . فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها .

وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب ، فكان يحدق بها عسكره ، ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمح منها »[1] .



(١) وفيات الأعيان ـ ابن خلكان ـ ٦/١١٥ .

٣ ـ لبيك ! وعبر المرابطون البحر

ما إن عبر يوسف بن تاشفين البحر ، واستقر على أرض الجزيرة الخضراء ، حتى خرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة (المرابطين) في دخول البلد والتصرف فيه . فامتلأت المساجد والرحبات بالمطوعين ، وتواصوا بهم خيراً .

وصلت الأخبار إلى الأذفونش (الفونسو السادس) فكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً ـ كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين ـ أغلظ له في القول ، ووصف ما معه من القوة والعُدَد والعدد ، وبالغ في ذلك لارهاب ابن تاشفين ، فلما وصله وقرأه يوسف ، أمر كاتبه (أبا بكر بن القصيرة) أن يجيبه ، وكان كاتباً مفلقاً ، فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : هذا كتاب طويل ، أحضر كتاب الأذفونش ، واكتب في ظهره : « **الذي يكون ستراه** » وأرسله إليه . فلما وقف عليه الأذفونش ، ارتاع له ، وعلم أنه بلي برجل لا طاقة له به .

وبعث الأذفونش ، إلى ابن عباد رسالة جاء فيها : « إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحر، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ، ولا أكلفكم تعباً ، أمضي إليكم ، وألقاكم في بلادكم ، رفقاً بكم ، وتوفيراً عليكم » وظهر واضحاً أن (ألفونسو) سيحاول ضرب قوة (ابن تاشفين) بسرعة قبل أن تتاح لها فرصة الاتصال مع جيش ابن عباد وتنسيق التعاون معها . وكان لا بد لقوات المسلمين من التحرك بسرعة لإحباط مخطط (ألفونسو) ، وافشاله . ولكن وقبل أن يتحرك (يوسف بن تاشفين) أرسل رسالة الى (ألفونسو) يعرض عليه فيها اختيار واحدة من ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب . وذلك وفقاً لما تفرضه السنة ، ومن جملة ما جاء في ارسالة : « **بلغتنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك -**

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلاّ في ضَلال »[1] .

أعاد يوسف بن تاشفين تنظيم قواته على أرض الجزيرة الخضراء ، ثم أخذ في التحرك نحو أشبيلية، وتقدمت قواته في سيرها على أحسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، وأميراً بعد أمير ، وقبيلاً بعد قبيل. وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف ، وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات . ورأى (يوسف) من

---

(١) سورة غافر - الآية ٥٠ .

ذلك ما سره ونشطه ، وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية ، وخـرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه ، فلما وصل معسكر يوسف ، ركض نحو القوم ، وركضوا نحوه ، فبرز إليه يوسف وحده ، والتقيا منفردين ، وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص ، وشكرا نعم الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ،وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، مقرباً إليه . وافترقا . فعاد يوسف لمحلته ، وابن عباد الى جهته . وأرسل ابن عباد ماكان أعدّه من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين. وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا ، وصلوا الصبح ، ركب الجميع ، وأشار (ابن عباد) على (يوسف) بالتقدم نحو أشبيلية ، واستعراض قواته ، ففعل . ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم . ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس ، إلا من بادر أو أعان . وخرج أو أخرج . وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف ، كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا .

كان المعتمد قد حشد قواته في أشبيلية وجاءته قوات دعم كبيرة من قرطبة وقوات المتطوعين من سائر بلاد الأندلس . واستمر توارد الجيوش مع أمرائها على أشبيلية . وأخذت القوات الإسلامية في تحركها نحو الشمال لملاقاة قوات العدو ، فتقدمتها قوات المرابطين بقيادة يـوسف بـن تاشفين ثم تبعتها مقدمة جيوش الأندلس بقيادة عبد الله بن المعتمد ، ثم سار بقية جيش الأندلس بقيادة المعتمد وفيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس .

وشعر المعتمد بالتفاؤل لنجاح مساعيه في حشد كل ما استطاع حشده ، وبذل كل ما أمكن له بذله ، فأخذ ينشد لنفسه مكملاً البيت المشهور :

لا بُدَّ من فرجٍ قريب يأتيك بالعجب العجيبِ
غزوٌ عليك مبارك سيعود بالفتح القريب
لله سعدك إنه نكس على دين الصليب
لا بد من يوم يكو ن له أخاً يوم القليبِ[1]

استمرت جيوش المسلمين في تقدمها حتى وصلت بطليوس فتوقفت بظاهرها ، وأقامت معسكرها ، وكان صاحب بطليوس (المتوكل محمد بن محمد بن الأفطس) قد اتخذ كافة الاستعدادات ، ولقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ، وجاءهم الخبر بتحرك (الأذفونش) ولما ازدلف بعضهم إلى بعض ؛ أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد (الأذفونش) إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل : إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد (ابن عباد) بنفسه مطيفاً بالمحلة ، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات .

قام (ألفونسو السادس) بمحاولة للتعرض للقوات، وإذ تبين له أنه من المحال عليه أخذ المسلمين على حين غرة ـ بغتة ـ عاد

---

(١) يوم القليب يعني (معركة بدر) . المرجع : نفح الطيب ٤/٣٥٤ ـ ٣٧٧ .

إلى معسكره ، وأمضى ليلته ، وقد امتلأ الكافر غيظاً وعتا وطغى وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، وتبايعوا على الموت .

أما في معسكر المسلمين ، فقد انصرف يوسف وابن عباد لوعظ أصحابهم . وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ ، وحضوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم من الفشل والفرار .



٤ ـ خديعة كافر يحبطها مسلم

جاءت طلائع قوات المسلمين، وأفادت أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمـون وقد أخذوا مصافهم ، فكعَّ الأذفونش ، ورفض الدخول في المعركة ، ورجع إلى أعمال المكر والخديعة ، فعاد الناس إلى محلاتهم ، وباتوا ليلتهم ، حتى إذا ما أصبح يوم الخميس ، بعث (الأذفونش) رسالة إلى (ابن عباد) جاء فيها : « **غداً يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، والأحد هو عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما ، وهو يوم السبت** » فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف ، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة ، وإنما قصده الفتك بالمسلمين يوم الجمعة . فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كلَّ النهار ، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس .

وبعد مضي جزء من الليل ، انتبه الفقيه الناسك أبو العباس (أحمد بن رميلة القرطبي ـ وكان في محلة ابن عباد) فرحاً مسروراً ، وهو يقول : « إنه رأى النبي ـ ﷺ ـ تلك الليلة في النوم ، فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك

الليلة » . فتأهب ، وعاد وتضرع ، ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك الى ابن عباد ، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى .

ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة (الأذفونش) وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق الطلائع متحققين بتحرك (الأذفونش) . ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : « استرقنا السمع ، فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : إن ـ ابن عباد ـ هو مسعر هذه الحرب ، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب ، فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا ، فإن انكشف لكم هان عليكم أمر الصحراويين بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة » . فعند دلك ، بعث (ابن عباد) الكاتب (أبا بكر بن القصيرة) إلى السلطان يوسف ، يعرفه بإقبال (الأذفونش) ويستحث نصرته . فمضى (ابن القصيرة) يطوي المحلات ـ المعسكرات ـ حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الأمر ، فقال له : « **قل له إني سأقرب منه إن شاء الله تعالى** » . واستنفر (يوسف) قواته ، ونظمها على عجل لدخول المعركة .

كان معسكر (ابن تاشفين) يقع على أقل من فرسخ[1] من

(١) جاء في الكامل في التاريخ (ابن الاثير) ١٤٢/٨ ـ أن المسافة بين معسكر المسلمين والفرنج هي ثمانية عشر ميلاً ، وأن جيش الفرنج قد بلغ خمسين ألفاً ، وأن =

معسكر العدو (ثمانية عشر ميلاً أو ثلاثين كيلومتراً تقريباً) فكان أول عمل قام به هو إصدار الأمر لقائد من قادته أن يمضي بكتيبة عينها له ، حتى يدخل محلة النصارى ، فيضرمها ناراً ، ما دام (الأذفونش) مشتغلاً مع ابن عباد .

وهكذا ، ومع سحر يوم الجمعة ـ منتصف شهر رجب ـ ٣٧٠ هـ (٢٣ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٠٨٦ م) ركب المعتمد بن عباد وبث الخبر في العساكر ، وما هي الا برهة حتى وصلت طلائع ابن عباد ، وهي ممزقة مشتتة ، وقوات الروم في أثرها تطاردها ، فماجت الأرض بأهلها ووقع البهت ، ورجفت الأرض ، وصار الناس فوضى على غير نظام ولا تعبية ولا أهبة .

= المعركة وقعت يوم الجمعة ، في العشر الأول من رمضان ٤٧٩ هـ . في حين ذكر ابن خلكان (وفيات الاعيان) ١١٦/٦ ، أن المعركة وقعت يوم الجمعة في منتصف رجب ٤٧٩ هـ . وعلى هذا أشارت معظم المصادر العربية .

٥ ـ موقعة الزلاقة

عاد الكاتب ابن القصيرة من لدن أمير المؤمنين يوسف الى معسكر المعتمد ولكنه لم يكد يبلغه حتى غشيته جنود الطاغية (الأذفونش ـ الفونسو السادس) فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ، ومال الأذفونش عليه بجموعه ، وأحاطوا به من كل جهة ، فهاجت الحرب ، وحمي الوطيس منذ اللحظة الأولى للاشتباك ، واستمر القتل في أصحاب ابن عباد ، وحطمت قوة الصدمة كل ما جابهها ، فتركت الأرض حصيداً خلفها ، وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب ، واشتد عليه وعلى من معه البلاء ، وأبطأ عليه الصحراويون ، وساءت الظنون ، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنه عبد الله ، وفر رؤساء الأندلس ، وتركوا محلاتهم وأسلموها ، وظنوا أنه وهي لا يرقع ، ونازلة لا تدفع . وظن الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين ، ولم يعلم أن العاقبة للمتقين . وأثخن ابن عباد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه ، وجرحت

يمنى يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحد قُدم له آخر . وهو يقاسي حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مغرماً به ، تركه في إشبيلية عليلاً ، وكنيته أبو هاشم ، فقال :

أبا هاشم هشمتني الشفار فلله صبري لِذاك الأُوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد (ابن تاشفين) قائد بطل اشتهر بالشجاعة والنجدة والحمية ، واسمه (داوود بن عائشة) وإذا ذاك ، تنفس (ابن عباد) الصعداء ، وزالت عنه همومه .

كان ابن تاشفين ، قد ركب فرسه منذ أن جاءه النذير (الكاتب ابن القصيرة) وأحاط به أنجاد خيله ورجاله ـ مشاته ـ من صنهاجة ، رؤساء القبائل ، وقصدوا محلة الأذفونش ، فاقتحموها ودخلوها ، وفتكوا فيها ، وقتلوا ، وضربت الطبول وزعقت الأبواق ، فاهتزت الأرض ، وتجاوبت الجبال والآفاق . فلما أبصره الأذفونش ، وجه حملته إليه ، وقصده بمعظم جنوده ، وتراجع الروم إلى محلاتهم ، فصدموا أمير المسلمين ، فأفرج لهم عنها ، ثم كر عليهم فصدمهم بجمعه ، وردهم إلى مركزهم ، وأخرجهم منه . ثم كروا عليه فخرج لهم عنها . واستمرت المعركة ما بين كر وفر .

أفاد المعتمد من تخفيف الضغط على جبهته ، فأعاد تنظيم قواته ، وقد استنشق ريح الظفر ، وأدرك تباشير النصر ، وبينما

الكرات بين ابن تاشفين والأذفونش تتوالى ، أمر ابن تاشفين حشمه من السودانيين بالترجل ـ للقتال كمشاة ـ فترجل منهم زهاء أربعة آلاف . ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان ، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها . وانطلقت قوات ابن عباد في الوقت ذاته بالهجوم ، وصدق الجميع الحملة ، وتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم ، وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل بالدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً . ثم انضم ابن عباد الى يوسف ، وحمل معه حملة صادقة ، وعاد المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين ، ولم تصمد قوات الأذفونش لقوة الهجوم فأخذت في التراجع . وقام أحد الجنود السودانيين بمطاردة الأذفونش فأهوى هذا على السوداني بضربة سيف قوية ، غير أن هذا تجنب الضربة ، ولصق به ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به ، فأثبته في فخذه ، فهتك حلق درعه . ونفذ من فخذه مع بِداد سرجه ، فانكشف الطاغية الأذفونش ، ومضى هارباً منهزماً ، وقد غنم طعنة في ركبته تركت فيه عاهة ـ عرجاً ـ عاشت معه ما بقي حياً لتذكره أبداً بتلك المعركة .

حان وقت الزوال عندما هبت ريح النصر ، وأنزل الله سكينته على المسلمين ، ونصر دينه القويم ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلتهم ـ معسكرهم ـ وولى الروم ظهورهم وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ، إلى أن لحقوا ربوة لجؤ وا إليها واعتصموا بها ، وأحدقت بهم الخيل ، وتجمع حول (الأذفونش) نحواً من

خمسمائة فارس ما فيهم واحد إلا مكلوم ـ مجروح ـ وأباد القتل والأسر مَنْ عداهم من أصحابهم ، والمخذول ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة ، فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به وبأصحابه ، حتى إذا ما أظلم الليل ، انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة ، وأفلتوا بعدما تشبثت بهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم ـ معسكرهم ـ من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك . وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين ، فاجتمع من ذلك تل عظيم . . .

وأقبل (ابن عباد) على السلطان (يوسف) وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه ، وشكر (يوسف) صبر ابن عباد ، ومقامه ، وحسن بلائه ، وجميل صَبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه ، فقال : هم هؤلاء قد حضروا بين يديك ، فليخبروك .

استشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة ، وقاضي مراكش (أبي مروان عبد الملك المصمودي) وغيرهما ، رحمهم الله تعالى . وحكي أن موضع المعترك على اتساعه ، ما كان فيه موضع قدم ، إلا على قتيل أو دم ، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جمعت الغنائم ، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف ، فعفَّ عنها ، وآثر ملوك الأندلس ، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم ، استكرموه ، وأحبوه ، وشكروا له ذلك .

وكتب ابن عباد ، الى ابيه بأشبيلية كتاباً تضمن ما يلي :

« كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفى عشرين من رجب ، وقد أعز الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح الله الفتح المبين ، وهزم الكفرة والمشركين . وأذاقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم ، فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة ، في تشتيت شمل (الأذفونش) والاحتواء على جميع عساكره ، أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم ، بعد إتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحُماته ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فالله الحمد على جميل صنعه ، ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة ألمت لكنها فرجت بعد ذلك ، فلّله الحمد والمنة . والسلام » .

ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده ، وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ، افتقدهم ، ولم يسمع إلا نواح الثكلى عليهم . واضطر من جراء ذلك إلى أن يخلي إقليم بلنسية ويرفع الحصار عن سرقسطة ، ولكنه اصطنع حصن (الليط[١]) بين (مرسيه) و(لورقة) حتى يتخذ منه قاعدة لهجماته المقبلة على اراضي المعتمد .

---

(١) الليط (ALEDO) ويسميه العرب أيضاً (لبيط) و(نبطيط) .

٦ ـ احتفالات النصر

رحل المعتمد إلى أشبيلية بعد الانتهاء من أمر (موقعة الزلاقة) ومعه (يوسف بن تاشفين) وجيشه، إذ سأله (المعتمد) أن ينزل في ضيافته . وأقام (ابن تاشفين) معسكره في ظاهر أشبيلية. وجلس (المعتمد وابن تاشفين) للناس ، وهنىء بالفتح ، وقرأت القراء ، وقام على رأسه الشعراء[1] فأنشدوه . قال (عبد الجليل بن وهبون) حضرت ذلك اليوم ، وأعددت

---

(١) وقال (الحافظ الحجاري) قصدت المعتمد ومعه أمير المسلمين ـ بعد موقعة الزلاقة ـ فرفعت له قصيدة منها :

لا رَوَّعَ الله سرباً في رحابهم ... وإن رموني بترويع وإبعاد
ولا سقاهم على ما كان من عطش ... إلا ببعض ندى كف ابن عباد
ذي المكرمات التي ما زلت تسمعها ... أُنسُ المقيم وفي الأسفار كالزاد
يا ليت شعري ماذا يرتضيه لمن ... ناداه يا مَوْئلي في جحفل النادي

فلما انتهيت الى هذا البيت ، قال : أما ما أرتضيه لك فلست أقدر في هذا الوقت عليه ، ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان ، وأمر خادماً فأعطاني ما أعيش في فِائدته الى الآن (نفح الطيب ٣/ ٥٧٠) .

قصيدة أنشدها بين يديه فقرأ القارىء : « **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ** » فقلت : بُعـداً لي ولشعري ، والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

قام (يوسف بن تاشفين) بجولة في أشبيلية ـ مدينة المعتمد ، وهي أحسن المدن وأجلها منظراً ـ وأمعن النظر فيها وفي محلها ، وهي على نهر عظيم مستبحر ، تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه ، وفي غربيها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون ، وهذا هو المسمى (بشَرَف إشبيلية) وتمتازُ بلاد المغرب كلها بهذه الأصناف منه ، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك . فأنزل المعتمد (يوسف بن تاشفين) في أحدها . وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له ، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ، ينبهونه على حسن تلك الحال وتأملها ، وما هي عليه من النعمة والإتراف . ويغرونه باتخاذ مثلها ، ويقولون له : إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة ، كما هو المعتمد وأصحابه . وكان ابن تاشفين داهية عاقلاً مقتصداً في أموره ، غير متطاول ولا مبذر ، غير سالك نهج الترف والتأنق في اللذة والنعيم ، إذ ذهب صدر عمره في بلاده بالصحراء في شظف العيش ، فأنكر على مَنْ أغراه بذلك الإسراف ، وقال له : « الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل ـ يعني المعتمد ـ أنه مضيع لما في يده من الملك ، لأن هذه الأموال الكثيرة التي تصرف في هذه الأحوال

لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً ، فأخذه بالظلم وإخراجه في هذه المترهات من أفحش استهتار . ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين ، متى تستنجد همته في ضبط البلاد وحفظها ، وصون عرينه والتوقير لمصالح بلاده ؟ ـ »

ثم إن (يوسف بن تاشفين) سأل عن أحوال المعتمد في لذاته : هل تختلف فتنقص عما عليه في بعض الأوقات أو هي دائماً على هذه الحال ؟ فقيل له : بل كل زمانه على هذا ؟ فقال : أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظاً من ذلك ؟ فقالوا : لا . قال : فكيف ترون رضاهم عنه ؟ فقالوا : لا رضى لهم عنه ، فأطرق وسكت .

وفي أثنائها ، استأذن رجل ذو هيئة رثة بالدخول على المعتمد ، فدخل ، وكان من أهل البصائر ، فلما مثل بين يديه ، قال :

أصلحك الله أيها السلطان ، وإن من أوجب الواجبات شكر النعمة ، وإن من شكر النعمة إهداء النصائح ، وإني رجل من رعيتك ، حالي في دولتك إلى الاختلال أقرب منها إلى الاعتدال ، ولكنني مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيته ، فمن ذلك خبر وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا ـ يوسف بن تاشفين ـ يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك . وقد رأيت رأياً ، فإن آثرت الإصغاء إليه قلته ،

فقال المعتمد له : قله ،

فقال له : رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملك مستأسد على الملوك ، قد حطم على زناته ببر العُدوة ، وأخذ الملك من أيديهم ، ولم يبق على واحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك ، بل في ملك جزيرة الأندلس كلها ، لما قد عاينه من هناءة عيشك ، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس . وإن له من الولد ومن الأقارب وغيرهم من لو يود له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب . وقد أردى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم ، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه ، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مِجَن ، وبعد ، فإنه إن فات الأمر في الأذفونش ، فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم .

فقال له المعتمد : وما هو الحزم اليوم ؟ .

فقال : أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا ، واعتقاله في قصرك ، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه ، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له . ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه ، وتأخذ منه على ذلك رهائن ، فانه يعطيك من ذلك ما تشاء ، فَنَفْسُه أعز عليه من جميع ما يُلْتَمَس منه . فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلا له. وتكون قد استرحت منه

بعدما استرحت من الأذفونش ، وتقيم في موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة ، ويتسع ملكك . وينسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزم ، وتهابك الملوك ، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة من عاملته هذه المعاملة . واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي ، تتفانى الأمم ، وتجري بحار الدم دون حصون مثله .

فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه ، وجعل يفكر في انتهاز الفرصة . وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات ، فقال أحدهم لهذا الرجل الناضج :

ـ ما كان المعتمد على الله ـ وهو إمام أهل المكرمات ـ ممن يعامل بالحيف ـ ويغدر بالضيف .

ـ فقال الرجل : « إنما الغدر هو في أخذ الحق من يد صاحبه ، لا دفع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به » .

ـ فقال ذلك النديم : « ضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء » .

ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر وتلافاه ، فشكره المعتمد ووصله بصلة . واتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين (يوسف) فأصبح غادياً . إذ وردت عليه من المغرب أخبار تقتضي العزم ، ومنها موت ابنه الذي كان يحكم سبتة . وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة . فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع . وكانت جراحاته تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله ، إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب ، وترك (ابن تاشفين) جيشاً في الأندلس

بقيادة أحد قادته المشهورين ، برسم الجهاد وغزو الافرنج . فاستراح هذا القائد أياماً قليلة ثم دخل بلاد (الأذفونش) وأطلق الغارة ، فنهب وسبى ، وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة العويصة ، وتوغل في البلاد ، وحصَّل أموالاً وذخائر عظيمة . ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه ، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصَّله . وكتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو ، وملازمة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده [1] .

---

(١) ورد في تاريخ الشعوب الاسلامية ـ بروكلمان ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٤ ـ ص ٣٢١ ـ أن القوة التي تركها ابن تاشفين في الاندلس ـ لا تزيد على ثلاثة آلاف بربري . ولذلك فإنهم عجزوا عن صد القشتاليين . غير أن معظم الشواهد المتوافرة تشير إلى جمود الموقف العسكري عقب معركة الزلاقة وعدم حدوث معارك جبهية ـ تصادمية ـ أو وقوع اشتباكات حاسمة .

٧ ـ المرابطون في الأندلس

عندما عزل (ألفونسو السادس) حاكم طليطلة (عبد القادر ابن ذي النون) بعد الاستيلاء عليها ، عمل على تعيينه حاكماً على (بلنسية) ولكن تحت وصاية (رذريق القنبيطور) الذي يلقب (السيد) . وقد عجز ملوك الطوائف عن فتح بلنسية . وقاد جيش المرابطين (ابن الحاج ـ محمد ومجون بن سيمونن بن محمد بن وركوت) فانطلق من سبتة ، وهزم جميع النصارى هزيمة شنيعة ، وخلع (ابن رشيق) صاحب مرسية ، وتمادى إلى دانية ، ففر حاكمها (علي بن مجاهد) ونزل على (الناصر بن علناس) فأكرمه . ووصل قاضي بلنسية (ابن جحاف) الى معسكر (ابن الحاج قائد المرابطين) مغرياً بالقادر بن ذي النون ، فأنفذ معه عسكراً ، وملك (بلنسية) وقتل (ابن ذي النون) وانتهى الخبر الى الطاغية (ألفونسو السادس) فنازل بلنسية واتصل حصاره اياها إلى أن ملكها ثم استخلصها عساكر المرابطين ، وولى عليها يوسف بن تاشفين (الأمير مزدلي) .

بقي (حصن الليط) قاعدة متقدمة لقوات (ألفونسو) من

أجل الهجوم على مملكة (أشبيليا) ، ومصدر ازعاج (للمعتمد ابن عباد) . فاستنجد الأمراء من جميع أطراف الاندلس بيوسف ابن تاشفين ، حتى إذا فزع المعتمد اليه مستصرخاً ، عزم على القيام بحملته العسكرية الثانية على بلاد الأندلس . وفي ربيع سنة ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) أجاز جيشه الزقاق الى الجزيرة الخضراء ، فانضم إليه أمراء مالقة وغرناطة وألمرية ، فضلاً عن المعتمد ، وتقدموا جميعاً الى (حصن الليط) فثبت لهجومهم الأول ، وكان لا بد من محاصرته مدة تطاولت إلى ما بعد حلول فصل الشتاء . ومهما يكن من شيء ، فقد ذر قرن الشقاق في معسكر المسلمين ، خارج (حصن الليط) بين ملوك الطوائف ، وبخاصة بين المعتصم (صاحب ألمرية) والمعتمد (صاحب إشبيلية) وبلغت منهما الجهالة مبلغاً جعلهما يحتكمان الى (ابن تاشفين) . وفي مطلع الشتاء ، سار (ألفونسو السادس) الى حصن الليط بجيش قوي ، ابتغاء انتزاعه من المسلمين . فما كان من (ابن تاشفين) الا أن انسحب إلى (لورقة) اجتناباً للالتحام بقوات ألفونسو في معركة لا يدري نتائجها ، بسبب من عدم ثقته بحلفائه الأندلسيين . ولم يكن (ألفونسو) نفسه راضياً عن سحب حاميته من (حصن الليط) الى (قشتالة) بعد أن تركه وقد أشرف على الخراب من تأثير ضرب المنجنيق المتواصل . وعلى كل حال ، فقد حققت العملية هدفها ، إذ عاد (حصن الليط) لقبضة المسلمين .

كان قادة (ابن تاشفين) يغرونه بالقضاء على (ملوك الطوائف) لأنهم «كانوا يخوضون المعارك القاسية ، ويجاهدون

الكفار ـ بينما ملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد العيش وأطيبه »وفي الوقت ذاته ، أخذ ابن تاشفين في التدخل بأمور (ملوك الطوائف) إذ طلب إليهم رفع الضرائب والمكوس عن أفراد الشعب ، وهكذا فعندما أجاز (يوسف بن تاشفين) إلى الأندلس سنة (٤٨٦ هـ = ١٠٩٢ م) تثاقل أمراء الطوائف عن لقائه ، الأمر الذي أغضبه ، غير أن (ابن عباد) استمر في رعاية صحبته . وبادر الى لقائه وأغراه بالكثير منهم . وعندما عاد (يوسف بن تاشفين) الى المغرب عين قائده (سير بن أبي بكر) لقيادة قوات المرابطين في الأندلس . وكلفه : « **بنقل ملوك الطوائف وترحيلهم الى أرض العدوة ـ فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد ، وكل بلد أخذته فول فيه أميراً من عساكرك** » .

وكان الأمير يوسف بن تاشفين قد اتخذ هذا القرار بعد أن أفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم ، وصارت اليه بذلك فتاوى أهل الشرق والأعلام مثل الغزالي ، والطرطوشي[1] ومضى (سير بن أبي بكر) لتنفيذ مهمته ، **فكان أول من ابتدأ به من ملوك الأندلس (بنو هود)** وكانوا مقيمين بروطة ـ بضم الراء المهملة ، وبعدها واو ساكنة ، وطاء مهملة مفتوحة ، وبعدها هاء ساكنة وهي قلعة منيعة من عاصمات الذرا ، وماؤها ينبع من أعلاها ، وفيها من الأقوات

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/٣٨٤ .

والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان ، فحاصرها فلم يقدر عليها ، ورحل عنها ، وجند أجناداً على هيئة الفرنج وزيهم ، وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها ، وكمن هو وأصحابه بقرب منها ، فلما رآهم أهل القلعة استضعفوهم ، فنزلوا إليهم ، ومعهم صاحب القلعة ، فخرج عليهم (سير) المذكور ، وقبضه باليد ، وتسلم الحصن . ثم نازل (بني طاهر ـ بشرق الأندلس) فأسلموا له البلاد ، ولحقوا ببر العدوة . واستنزل (**أولاد المأمون**) **من قرطبة و** (**يزيد الراضي**) **من رنده وقرمونة** واستولى على جميعها وقتلهم . ثم نازل (**بني صمادح بالمرية**) ولها قلعة حصينة ، فحاصرهم وضيق عليهم . ولما علم (ابن صمادح) الغلب ، أسف و**مات** غبناً ـ قهراً ـ فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها . ثم قصد (**بطليوس ـ وكان بها المتوكل عمر بن محمد ابن الأفطس**) فحاصره وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله ، ثم قتله وابنيه يوم عيد الأضحى ، بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية (الفونسو) واتفاقهم معه على تسليمه (بطليوس) . أما (غرناطة ـ والتي كانت تحت حكم عبد الله بن بلكين) فكان (أمير المسلمين يوسف بن تاشفين) قد استولى عليها في جوازه الثاني . حيث نزل (ابن تاشفين) في ناحية غرناطة بعد ما حصر بعض حصون الفرنج ، فلم يقدر عليه ، وخرج عبد الله بن بلكين للقائه والترحيب به ، فسلم عليه ، ثم عاد (ابن بلكين) الى غرناطة ليخرج له التقادم ، فغدر (ابن تاشفين) به ودخل البلد ، وأخرج (ابن بلكين) ودخل قصره ، فوجد فيه من الذخائر والأموال ما لا يعد ولا يحصى ، وهكذا انقرض ملك (ملوك

الطوائف) من الأندلس كلها . ولم يوفق إلى الاحتفاظ بالحكم الا (حاكم سرقسطة ـ من بني هود) الذي استطاع الاحتفاظ بها ، بفضل اعترافه بابن تاشفين وإمداده بالهدايا من جهة ، وبقائه على اتصال بملك قشتالة من جهة ثانية .

عندما لم يبق من ملوك الطوائف الا (المعتمد بن عباد) كتب (سير بن أبي بكر) رسالة الى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) يسأله حكمه فيه . فكتب إليه : « يأمره أن يعرض على ـ ابن عباد ـ الانتقال إلى بر العدوة ـ المغرب ـ بجميع الأهل والعشيرة ، فإن رضي ، والا فحاصره وخذه وأرسل به كسائر أصحابه » وقام (سير بن أبي بكر) بمقابلة (ابن عباد) وأبلغه بأمر (يوسف بن تاشفين) وسأله الجواب ، فلم يجب بنفي ولا إثبات ، ثم إنه نازل (إشبيلية) وحاصره بها ، وألح عليه ، فأقام الحصار شهراً ، ودخل البلد قهراً ، واستخرجه من قصره ، فحمل وجميع أهله وولده الى العدوة ، فأنزل (بأغمات) وأقام بها إلى أن مات .

توفي (يوسف بن تاشفين) (سنة ٥٠٠ هـ ـ ١١٠٦ م) تاركاً لابنه علي أقوى دولة عرفها المغرب الاسلامي حتى ذلك الحين ، بيد أن التنظيم الداخلي لهذه الدولة المترامية الأطراف ، كان أبعد ما يكون عن الإحكام والتماسك ، ولم يلبث علي أن انصرف بكليته الى الأمور الدينية ، وقام الفقهاء بالإسهام بأكبر قسط في أمور الدولة . ونشأت صراعات بين الفقهاء ذاتهم ، وعلى سبيل المثال ، فقد أثار كتاب (إحياء علوم الدّين ـ للإمام الغزالي) عاصفة شديدة من الاستياء عند انتشاره في الأندلس . وزاد الأمر

خطورة عندما أصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى ، اتهموا فيه الغزالي بالابتداع والهرطقة ـ الكفر ـ لتجديده في أمور مثل محاسبة النفس ـ اعتبرت خروجاً على الدين . وأحرق كتاب « الغزالي » في قرطبة على مشهد من جماهير الشعب . وفرضت عقوبة القتل على كل من يقرأه في طول المملكة وعرضها .

وكما هي العادة أفاد اليهود من التسامح الديني الذي ضمنه الإسلام ، فارتقى اليهودي الشهير ابن نغدله ـ او النغراله والنغريله كما تذكره المصادر العربية حتى أصبح وزيراً ـ كاتباً ـ لصاحب غرناطة ـ باديس ـ وأعضل داؤه المسلمين ، فقد استغل منصبه للتنكيل بالمسلمين وإرهاقهم من أمرهم عسراً ، وضج الناس ، حتى قال زاهد إلبيره وغرناطة (أبو اسحاق الالبيري) قصيدته النونية المشهورة ، والتي جاء فيها :

ألا قـل لصنهاجـة أجمعين   بُدور الزمان وأُسد العرين
مقـالـة ذي مِقَـةٍ مُشْفـقٍ   صحيح النصيحة دنيا ودين
لقـد زلَّ سيـدكـم زلـةً   أقـرَّ بهـا عيـون الشـامتين
تـخيـر كـاتبـه كـافـراً   ولو شاء كان من المؤمنين
فـعـزَّ اليـهـودُ وانْـتَـمُـوا   وسادوا وتاهوا على المسلمين

وعندما وصلت الاستشارات ذروتها ، ثارت صنهاجة على اليهود ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ـ وفيهم الوزير المذكور ـ واضطر يهود (أليسانة) وهم أغنى اليهود في الأندلس إلى دفع الجزية، في حين آثر غيرهم أين يبرحوا البلاد مثلما فعل والد الفيلسوف (ابن ميمون) . أما النصارى المستعربة ، فقد اتخذوا

من اللغة العربية ستاراً للدس على الدين والتآمر على المسلمين في كل مكان ، وتابعوا دورهم في التعاون مع أمراء النصارى ودعمهم خلال هجماتهم المتكررة على حدود بلاد المسلمين . وهي الهجمات التي عجز المرابطون ـ البربر ـ عن مقاومتها مقاومة فعالة وذلك بعد أن انغمسوا في متارف الحضارة الأندلسية ومناعمها وترفها ، وتفرقت قواتهم على كل انحاء الأندلس . وقد ظهر ذلك واضحاً في الهجوم الذي قام به ملك أرغون ألفونسو السادس على سرقسطة يوم ١٩ كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١١١٨ م . وكانت (سرقسطة) هي القاعدة المتقدمة للمسلمين في الشمال ، ولهذا بقيت محل نزاع ملوك المسلمين والنصارى زمناً طويلاً . ونظراً لما تعرض له هذا الثغر من الأحداث المثيرة ـ وفقاً لما سبقت الإشارة اليه ـ فقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند أبرز تلك الأحداث .

صار أمر (بلنسية) إلى الفقيه القاضي (أبي أحمد بن جحاف) قاضيها ، الذي صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين . فحاصره بها (القادر بن ذي النون) الذي مكن الطاغية (ألفونسو) من الاستيلاء على (طليطلة) . وقام القاضي (ابن جحاف) بدعم من المرابطين ، بالهجوم على (ابن ذي النون) وقتله . وأصبح (ابن الجحاف) مدفوعاً لممارسة ما لم يكن مؤهلاً له من تدبير السلطان ، وإدارة الحكم ، ورجعت عنه طائفة الملثمين ـ المرابطين ـ الذين كان يعتد بهم . فراح يستصرخ إلى أمير المؤمنين (ابن تاشفين) فيبطىء عليه ، وفي

أثناء ذلك ، استطاع حاكم (سرقسطة)[1] وهو (يوسف بن أحمد بن هود) أن يستثير الطاغية (روذريق القنبيطور) للاستيلاء عل (بلنسيه)[2] فدخلها ، وعاهده القاضي (ابن جحاف) واشترط (القنبيطور) عليه إحضار ذخيرة كانت (للقادر بن ذي النون) فأقسم أنها ليست عنده . فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله ، فاتفق أنه وجدها عنده ، فأحرقه بالنار ، وعاث في (بلنسية) وفيها يقول (ابن خفاجة) حينئذ :

---

(١) سرقسطة : (SARAGOSSA) كانت من أهم مدن أراغون في شمال ـ شرقي الأندلس ـ تقع على نهر (ابرة : EBRO) وقد بناها القيصر اوغست : - CASAR) (AUGUSTA عام ٢٣ ق . م . على أنقاض المدينة الايبرية القديمة التي كانت تعرف باسم (سالدوبا : SALDUBA) . وقد أشاد العرب كثيراً بوصفها ، ومما جاء في نفح الطيب ١/١٥٠ و ١٩٦ : أن في كورة سرقسطة الملح الأندراني الأبيض الصافي الأملس الخالص ، والذي ليس في الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح . وقيل أيضاً أن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جلق بسرقسطة ، فاستعذبه ، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه ، وسأل عن اسمه ، فقيل (جلق) ونظر إلى ما عليه من بساتين فشبهها بغوطة جلق الشام .
وذكر أيضاً أنها لا تدخلها حية أو عقرب الا ماتت من ساعتها ، ولا يتسوس فيها شيء من الطعام ولا يعفن .

(٢) بلنسية : (BALENCIA) كورة ـ ناحية ـ ومدينة بالاندلس ، شرقي قرطبة ، وأشاد العرب بمحاسنها ، ومن قولهم فيها :

هي الفردوس في الدنيا جمالاً لساكنها ، وكارهها البعوض.

وكذلك :

بلنسية ـ إذا فكرت فيها وفي آياتها ـ أسنى البلاد
وأعظم شاهدي منها عَلَيْها وأن جمالها للعين بادي
كساها ربها ديباج حسن له علمان من بحر ووادي

(نفح الطيب ١/١٧٩ ـ ١٨٠) .

عاثت بساحتك الظِّبا يا دار ومَحا محاسنكِ البلى والنار
فإذا تَرَدَّد في جنابك ناظرٌ طال اعتبارٌ فيـك واستعبارُ
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقـدارُ
كتبت يدُ الحدثان في عَرَصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديارُ

وكان استيلاء (القنبيطور) عليها سنة (٤٤٨ هـ - ١٠٩٤ م) . وقد حاصرها (القنبيطور) عشرين شهراً حتى تمكن من دخولها صلحاً ، ثم غدر بها وأحرقها ، وعاث فيها ، وممن أحرق فيها الأديب (أبو جعفر بـن البني - الشاعر المشهور) فوجه أمير المؤمنين (يوسف بن تاشفين) الأمير (أبا محمد مزدلي) فاستعادها سنة (٤٩٥ هـ = ١١٠١ م) . وتوالى عليها أمراء المـرابـطين - الملثمين - ثم صـارت تحت حكم بن غـانيـة (الملثم) حين ولي جميع شرق الأنـدلس. فقدم عليهـا أخاه عبد الله بن غانية .

ضعف أمـر المرابـطين بعد ذلـك ، وأقام المـوحـدون (أبناء عبد المؤمن) دولتهم على أنقـاض دولة المـرابطين . واضـطلعـوا بـأعبـاء الجهـاد في سبيـل الله . وكـانت لهم أيامهم الشهيرة في الأندلس . ولكن أمر (بلنسيـة) لم يزل يضعف باستيلاء العدو على أعمالها ، حتى تمكن العدو (ملك برشلونة النصراني) من فرض حصار قوي عليها ، وكان حاكمها إذ ذاك هو قائد الفرسان (الأمير زيان بن أبي الحملات بن أبي الحجاج بن مردنيش) فأسرع بطلب الدعم من صاحب أفريقية - حاكمها - (أبي زكريا بن أبي حفص)حيث أوفد كاتبه الشهير (أبا

عبد الله بن الأبار القضاعي[1]غير أن حاكم برشلونة- ملكها - تمكن من اقتحام المدينة (يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) (١٢٣٨ م) في حين كانت (سرقسطة) قد أصبحت تحت حكم النصارى (ملك أرغون منذ سنة ١١١٨ م). وهذا يعني أن المسلمين قد نجحوا في إيقاف العدوان طوال (١٢٠ عاماً) . وفي الواقع فقد أرسل السلطان (أبي حفص) اسطولاً قوياً يحمل الإمداد والأموال والأقوات لدعم (بلنسية)، غير أن قوات أرغون) نجحت في منع هذا الإمداد من الوصول الى المدينة ، الأمر الذي حمل أهلها على عقد صلح مع النصارى بعد حصار طويل .

وتجدر الإشارة إلى ما رافق هذه الصراعات من أحداث كثيرة ، كان من بينهما انتصار ملك أرغون في موقعة كتندة (أو قتندة) التي كانت من أعمال (سرقسطة) من الثغر الأعلى . وكذلك تطوير ملك أرغون أعماله الهجومية ، والوصول بها إلى (غرناطة) . الأمر الذي يبرز ضعف قوات المرابطين أمام الهجمات الكثيفة لقوات الشمال . والذي يبرز بدوره أيضاً تحالف كل النصارى في جبهة واحدة ضد مسلمي الأندلس .

ففي سنة ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م قاد (ألفونسو الأول) ملك أرغون (الذي استولى على سرقسطة قبل سنتين) بقيادة جيشه ،

---

(١) أبا عبد الله بن الأبار القضاعي . شاعر أندلسي مجيد ، وكاتب شهير ، من آثاره المعروفة كتاب (التكملة) و (إعتاب الكتاب) وغيرهما . وقد ألقى بين يدي السلطان قصيدته السينية الفريدة لاستنهاض السلطان (أبي حفص) وشرح حال المسلمين في الاندلس .

وهاجم كتندة ـ من حيز دورقه ـ وكانت الهزيمة على المسلمين ، قتل فيها من المطوعة نحواً من عشرين ألفاً ، ولم يقتل فيها من العسكر أحد ـ وكان على المسلمين الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين . وانصرف العسكر مغلولاً الى (بلنسية) وكان القاضي (أبا بكر بـن العربي) ممن حضرها ، وسئل عن حاله في المعركة ، فقال : «حال من ترك الخباء والعباء» وهذا مثل عند المغاربة معروف ، يقال لمن ذهبت ثيابه وخيامه ، بمعنى أنه ذهب جميع ما لديه . وفي سنة **٥١٩** هـ = **١١٢٥** م ـ اندفع (ألفونسو الأول ـ ملك أرغون) إلى أبعد من ذلك في اتجاه الجنوب ، ومع أنه لم يوفق إلى تحقيق ما رمى إليه من الاستيلاء على غرناطة ، فقد أنزل بالمسلمين هزيمة منكرة قرب مدينة (اليسانة) اليهودية . عندئذ أصدر (ابن رشد) أشهر قضاة ذلك العصر ، وجد الفيلسوف الشهير ، فتوى بضرورة إجلاء النصارى الذين القيت عليهم تبعة هذه الهزيمة ، فنقلوا إلى مراكش ، وأنزلوا في مدينتي (سلا ـ و ـ مكناسةغير أن استيلاء مسلمي الأندلس من حكم المرابطين ـ الملثمين ـ قد تعاظم باستمرار ، نتيجة قيام مجاهدي (البربر بأعمال التخريب ، والعبث في المدن ، بضراوة لا تقل عن ضراوة المرتزقة من جنود (ملوك الطوائف) من قبل . وشلت حركة العمل والتجارة ، الأمر الذي حمل أبناء الأندلس على الترحيب بحكم (الموحدين) على أمل بتحقيق ظروف أفضل على أيديهم في مواجهة العدو الخارجي ، وضمان الأمن الداخلي [١] .

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ـ بروكلمان ـ (٣٢٠ ـ ٣٢٣) .

٨ ـ الصفحة الأخيرة من حياة ابن عباد في أشبيلية وأغمات

تلقى (ابن عباد) الأنذار من (سير بن أبي بكر) قائد يوسف ابن تاشفين في الأندلس ، بالاستعداد لنقله إلى (عدوة المغرب) مع جميع أفراد عائلته وحاشيته ، غير أنه كان من الصعب على (ابن عباد) التسليم بملكه ، وكان من الأصعب عليه مقاومة هؤلاء الطامعين فيه لما يربطه بهم من أواصر الدين (ألم يقل إن رعي الجمال خير من رعي الخنازير ؟) وإذن فكيف له بمقاومتهم ؟ هذا إن بقي له من القوى ما يمكنه من المقاومة المجدية . لا سيما بعد أن سيطر (سير بن أبي بكر) على المعاقل والمراكز المحيطة بأشبيلية ، وباتت مدينته معزولة ، ليس ذلك فحسب ، بل إن الحاشية المحيطة به باتت مرتبطة بالولاء (لابن تاشفين) وقائده (سير بن أبي بكر) . ولقد أسهبت المصادر الأندلسية كلها في وصف تلك الصفحة الأخيرة من حياة (ابن عباد) في (أشبيلية) فأوردت مجموعة من الأوصاف المتشابهة في مضمونها ، والمختلفة في صياغتها ، ومما جاء فيها :

« خامرت طائفة من أصحاب المعتمد عليه ، فأُعلم

باعتقادها ، وكشف له عن مُرادها ، وحُضَّ على هتك حُرَمِها ، وأغري بسفك دمها ، فأبى ذلك مجده الأثيل ، ومذهبه الجميل ، وما خصه الله تعالى به من حسن اليقين ، وصحة الدين . وما زالت عقارب تلك الداخلة تدب ، وريحها العاصفة تهب ، ونارها تقد ، وضلوعها تحنق وتحقد ، وتضمر الغدر وتعتقد ، إلى أن أمكنتهم الغرة ، فانتصروا ببغاث مستنسر ، وقاموا بجمع غير مستبصر ، ودخلوا البلد من واديه ، وبدت من المكروه بواديه ، وكرَّ على - المعتمد - الدهر بعوائده وعواديه ، وهو مستمسك بعرى لذاته ، منغمس فيها بذاته ، ملقىً بين جواريه ، مغتر بودائع ملكه وعواديه ، التي استرجعت منه في يومه ، ونبهه فواتها من نومه . ولما انتشر الداخلون في البلد وأوهنوا القوى والجلد ، خرج والموت يتسعر في ألحاظه ، وبرز من قصره ، متلافياً لأمره ، عليه غلالة ترف على جسده وسيفه يتلظى بيده :

وذاك السيف راقَ وراع حتى ... كأن عليه شيمة منتضيه
كأن الموت أودع فيه سراً ... ليرفعه إلى يوم كريه

فلقي على باب من أبواب المدينة فارساً مشهوراً بنجدة ، فرماه الفارس برمح التوى على غلالته ، وعصمه الله تعالى منه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس ، فشقه إلى أضلاعه ، فخر صريعاً سريعاً . فرأيت القائمين عندما تسنموا الأسوار تساقطوا منها ، وبعدما أمسكوا الأبواب تخلوا عنها ، وأخذوا على غير طريق ، وهوت بهم الهيبة في مكان سحيق ، فظننا أن البلد من أقذائه قد صفا ، وثوب العصمة علينا قد ضفا ، إلى أن كان يوم الأحد الحادي والعشرون من رجب (٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) فعظم

الأمر في الخطب الواقع ، واتسع الخرق فيه على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامية على الموت بنفسه ، ما لا يزيد عليه ولا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة في البلد ، ولم يبق فيه على سَبَد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من منازلهم ، يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى ، وما هم بسكارى . واستمر المعتمد في دفاعه ، وحسامه بعد بمضائه ، فلقيهم برحبة القصر ، وقد ضاق بهم فضاؤها ، وتضعضعت من رجتهم أعضاؤها ، فحمل حملة صيرتهم فِرَقاً وملأتهم فَرَقاً ، وما زال يوالي عليهم الكر المعاد حتى أوردهم النهر ، وما بهم جواد . وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله ، وذهاب ملكه وارتحاله . وعاد إلى قصره ، واستمسك فيه يومه وليلته ، مانعاً لحوزته ، دافعاً للذل عن عزته ، وقد عزم على أفظع أمر . وقال : « بيدي لا بيد عمرو » ثم صرفه تقاه عما كان نواه ـ الانتحار ـ فنزل من القصر بالقسر ، إلى قبضة الأسر ، فقيد للحين ، وحان له يوم شر ما ظن أنه يحين . ولما قيدت قدماه ، وذهبت عنه رقة الكبل ورحماه ، قال يخاطبه :

إليكَ فلو كانت قُيُودُكَ أسعرتْ تَضَرَّمَ منها كل لف ومعصم
مخافة من كان الرجال بسَيْبه ومن سيفه في جنة أو جهنم

ولما آلمه عَضّه ، ولازمه كسره ورضّه ، وأوهاه ثقله ، وأعياه نقله ، قال :

تبدلت من عز ظل البنود بذلِّ الحديد وثقل القيود

وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
فقد صارَ ذاك وذا أدهما يَعَضُّ بساقيَّ عضَّ الأسود

ثم جمع هو وأهله ، وحملتهم الجواري المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعدما ضاقَ عنهم القصر ، وراق منهم العصر . والناس قد حشروا بضفتي الوادي ، وبكوا بدموع كالغوادي ، فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم . وفي ذلك يقول (ابن اللبانة) قصيدة طويلة منها :

تبكي السماء بمزن رائح غاد
على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها
وكانت الأرض منها ذات أوتاد

وينقل المعتمد وأهله إلى (أغمات) في المغرب . ويحتاج الى خباء عارية (خيمة) فيطلب إلى (حواء بنت تاشفين) فتعتذر هذه ، ويقول المعتمد :

هم أوقدوا بين جنبيك نارا أطالوا بها في حشاك استعارا
أما يخجل المجد أن يُرحلوك ولم يصحبوك خباء معارا
فقد قَنّعوا المجد إن كان ذاك وحاشاهم منك خزياً وعارا
يقلُّ لعينيك أن يجعلوا سوادَ العيونِ عليكم شعارا

ويقوم ابنه (عبد الجبار) بثورة في (أركش) بالأندلس ، فتكون له مع المرابطين قصة شهيرة ، وتنتهي ثورته الى الفشل ، غير أن المعتمد يتعرض وهو في سجنه لمزيد من النكال . وتعيد هذه القصة (للمعتمد) ذكرى ولديه اللذين قتلا أثناء اعتقاله وتتشرد عائلته ، فيفقد الاتصال ببعض أفرادها ، حتى إذا ما علم

بوجود ولد من أولاده على قيد الحياة ، شعر ببعض العزاء ويضيق الأمر (بزوجته الرميكية) وأولاده ، فمنهم من ينصرف لغزل الصوف بحثاً عن لقمة العيش ، ومنهم من يبحث عن لقمة العيش في العمل لدى الصنـاع ويحتمل (المعتمد) ذلك بصبر المؤمن ، وإيمان المسلم ، وتحدث له وهو في سجنه بعض المفارقات التي يجدر ذكرها .

كانت هناك طائفة من أهل (فاس) قد عاثوا فيها وفسقوا ، وانتظموا في سلك الطغيان واتسقوا ، ومنعوا جفون أهلها السِّنات ، وأخذوا البنين من حجور آبائهم والبنات ، وتلقبوا بالإمارة ، وأركبوا السوء نفوسهم الأمّارة ، حتى كادت أن تقفز على أيديهم ، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم ، إلى أن تدارك أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، رحمه الله تعالى - أمرهم ، وأطفأ جمرهم ، وأوجعهم ضرباً ، وأقطعهم ما يشاء حزناً وكرباً ، وسجنهم بأغمات ، وضمتهم جوانح الملمات ، والمعتمد إذ ذاك معتقل هناك ، وكانت فيهم طائفة شعرية ، مذنبة أو بريئة ، فرغبوا إلى سجانهم أن يستريحوا مع (المعتمد) من أشجانهم ،وفخلى ما بينهم وبينه ، وغمض لهم في ذلك عينه ، فكان (المعتمد) رحمه الله تعالى يتسلى بمجالستهم ، ويجد أثر مؤانستهم ، ويستريح إليهم بجواه ، ويبوح لهم بسره ونجواه ، إلى أن شفع فيهم ، وانطلقوا من وثاقهم ، وانفرج لهم مُبهم أغلاقـهم ، وبقي المعتمد في محبسه ، يشتكي من ضيق الكبل ، ويبكي بدمع كالوَبْل . فدخلوا عليه مودعين ، ومن بثه متوجعين .

ويتشوف المعتمد للموت (الحمام) لسببين ، أولهما النزوع للحرية ، إذ لا طعم للعيش والساق في الكبل ، وثانيهما ، عجزه عن حماية أبنائه (فراخه) الذين خانهم الماء والظل ، فهو ابداً ، حتى في سجنه ، الملك الأبي ، والزوج الحنون ، والأب الرؤوف العطوف . وهو يحتسب كل ما نزل به ، ويرجو الله رحمته ومغفرته ، ويحاول قبول ما نزل به ، بروح راضية ، ونفس مطمئنة ، فيقول :

إقنع بحظك في دنياك ما كانا
وعَزِّ نفسك إن فارقت أوطانا
في الله من كل مفقود مضى عِوَضٌ
فأشعر القلب سلواناً وإيماناً
أكلما سنحت ذكرى طربت لها
مجت دموعك في خديك طوفانا
أما سمعت بسلطان شبيهك قد
بزته سود خطوب الدهر سلطانا
وَطن على الكره وارقَبْ إثره فرجاً
واستغفر الله تغنم منهُ غفرانا[1]

وتمضي الأيام على (المعتمد) وهو في (أغمات) يعيش متأرجحاً بين اليأس والرجاء ، بين القنوط والأمل . حتى توافيه منيته ، وينادي المنادي (الصلاة على الغريب) وتموت (الرميكيه) زوجته ، فيضم رفاتهما قبرين متجاورين في صحراء

---

(١) نفح الطيب ٤/١١٦ و ٢٢١ - ٢٢٣ .

مقفرة . غير أن (المعتمد) بقي كبيراً بعد وفاته ، كما كان كبيراً في حياته ، لم ينتقص من قدره زوال ملكه ، ولم يعف عن ذكره موته غريباً ، فبقي سيفاً مغمداً في قلب الصحراء يذكر بكلمته الخالدة : (رعي الابل ، خير من رعي الخنازير) .

وتكبر قصة (المعتمد) بتقادم الزَمن .

فهل كانت حياته الإبداعية الرومانسية هي سر تعلق الشعب العربي المسلم به ، وحرصه على الاحتفاظ بذكراه ؟ أم كانت نهايته المأساوية (التراجيدية) هي التي أثارت خيالات الناس، خاصتهم وعامتهم ، والناس بطبعهم الخيِّر ينفرون من الظلم ويجنحون لدعم المظلوم ؟ أم هي أغنيات الشعراء ، الذين أحبهم المعتمد وأحبوه ، فانطلقوا يشيدون بفضائله ويجعلونه ذكراً خالداً على شفة الزمن ؟ أم هي وقفة الانسان العربي - المسلم الأبي التي وقفها في وجه ملك الفرنج (ألفونسو السادس) هي التي رفعته إلى مصاف الشهداء الخالدين ؟ أم هي وقفته في المعركة ، صامداً ، يوم ارتعدت الفرائص في (الزلاقة) فكان نموذجاً للانسان العربي - المسلم الذي يفضل الموت على عار الهزيمة ؟ أم هي مزيج ذلك كله هو الذي صنع من (المعتمد) وقصته ما يشبه اسطورة كل زمان ومكان ؟

الفَصْلُ الثَالِثُ

المعتمد ملكاً

١ ـ المعتمد شاعراً
٢ ـ الشعَراء والمعتمد



المعتمد ملكاً

عاش المعتمد بن عباد حياة مثيرة ، إثارة المرحلة التاريخية التي عاشتها الأندلس الاسلامية في تلك الحقبة . وكان لحياة الاندلس ذاتها ، بما عرف عنها من التقدم الاجتماعي والتطور الاقتصادي دور كبير في إعطاء حياة المعتمد خصوصيتها ، وطابعها الفردي المميز . وعلى كل حال ، فان حياة المعتمد لم تكن مجرد مرآة سلبية للمجتمع الأندلسي - الإسلامي ، أو صورة بارزة عن حياة القصور وما تحفل به من الدعة والترف . ولقد شغلت سيرة المعتمد وأسلوب حياته ، حيزاً غير قليل من التاريخ الأندلسي ، والأدب الأندلسي ، ولعل في ذلك تأكيداً على خصوصية حياة المعتمد التي فتنت الناس ، خاصتهم وعامتهم ، وشغلتهم . ويظهر أن هذا الطابع من الحياة كان محبباً الى نفوس الأندلسيين ، أثيراً الى قلوبهم ونفوسهم . الأمر الذي زاد من فداحة المأساة التي انتهت إليها حياة آل عباد على يد المرابطين .

وفي الحقيقة ، فقد كانت هناك نقطتان مضيئتان يمكن

استخدامهما بمثابة مؤشرات لإبراز خصوصية سيرة المعتمد ملكاً . لقد عمل (المعتضد) ومن بعده ابنه (المعتمد) على تجريد عدد من ملوك الطوائف من ملكهم ، وحرمهم من مجدهم وعزهم ، وعلى الرغم من ذلك ، فان ذلك لم يستثر اهتمام الاندلسيين أو يخلق لديهم ردود فعل سلبية ، بل إن الأمر على النقيض من ذلك ، فقد لقي عمله هذا ترحيباً كبيراً . ولو أن هذا الترحيب لم يكن مجرداً من بعض العطف على اولئك الذين تم عزلهم عن عروشهم في حكم (ملوك الطوائف) . مما يدل على أن عملية العزل السياسي كانت محدودة جداً ولم تتجاوز أشخاص الحاكمين ، ومما يدل أيضا على أن فئة الحكام هذه كانت معزولة عن الجماهير ـ بحسب التعبير الحديث . . ويؤكد ذلك أن المعتمد قد مارس عملية عزل (ملوك الطوائف بأساليب سياسية ـ ديبلوماسية) لا بأساليب عسكرية يغلب عليها طابع القهر والقمع والقوة ، واذا كان لا بد من اللجوء في النهاية الى هذه الاساليب ، فعلى أضيق نطاق ممكن ، وفي إطار من التوازن المحكم والدقيق بين هدف (المحافظة على القدرة الذاتية) و(عدم ترك جراح عميقة تعيق عملية بناء المستقبل) .

ومقابل ذلك ، فقد تميزت عملية استيلاء (المرابطين) على (ممالك ملوك الطوائف) بالبطش والعنف والتصفيات الجسدية ، وإذا كانت بعض هذه العمليات لم تستثر الرأي العام الأندلسي إلى حد كبير ، فإن هذه الاستثارة وصلت ذروتها بالقضاء على (مملكة ابن عباد) في أشبيلية . ولقد سبقت الإشارة إلى أن يوسف بن تاشفين لم يقدم على اجراءاته إلا بعد أن حصل على فتاوى فقهاء

المسلمين وقضاتهم بجواز عزل ملوك الطوائف المقصرين في جهاد العدو . ولم يكن باستطاعة ابن تاشفين على ما يظهر استثناء ابن عباد وهو الذي توافرت لديه من القدرة والثروة ما يكفي لاغراء المرابطين بحكمه .

هناك عاملان كان لهما دورهما على كل حال ، فلقد جاء (ابن تاشفين) بالمرابطين من جوف الصحراء ، واستولى بهم على حكم البلاد الاندلسية ، وكان هؤلاء - من البربر - الذين لا يُعرفون من اللغة العربية إلا أقلها ، وقد أثار ذلك النزعة القديمة - المتجددة ، بين العرب المسلمين - ومسلمي البربر . أما العامل الثاني فهو قيام هؤلاء البربر بفرض طرائقهم وأساليبهم بالقوة ، وهي الطرائق والأساليب التي كان المجتمع الأندلسي قد تجاوزها منذ عهد بعيد ، بتأثير تطوره الاجتماعي والاقتصادي . ويمكن من هذه النقطة بالذات الأخذ بوجهة النظر الأندلسية وهي أن الصراع بين ملوك الطوائف هو صراع بين أخوة متنافسين ، في حين كان الصراع مع (المرابطين) هو صراع مع (أخوة ألداء) فرضته ظروف الصراع مع قوى الاعداء الخارجيين (نصارى الشمال) .

وهناك نقطة لا بد من التعرض لها : وهي أن (ملوك الطوائف) قد طلبوا التعاون مع المرابطين - إخوتهم في الدين - لمجابهة أعداء الدين ، وعلى هذا ، فقد كان من المفروض أن يؤدي هذا التعاون إلى زيادة (القدرة الذاتية ، ودعمها ، في حين أدى استيلاء المرابطون على ممالك (ملوك الطوائف) إلى خلق جدار فاصل بين الاندلسيين أبناء البلاد - وبين الحكام الجدد (المرابطين) وقد عالج هؤلاء عزلتهم بالعنف والقسوة مما زاد

الأمر سوءاً . وكانت النتيجة ـ على المدى البعيد ـ الوصول الى نتائج مغايرة تماماً للهدف الذي تم بموجبه تنظيم التعاون في البداية (معركة الزلاقة) . وقد يكون من السابق لأوانه ـ هنا ـ التعرض لأخطاء هذه السياسة الاستراتيجية غير أن التعرض للموقف يفرض ذكر هذه النقطة ، ولو بمجرد الإشارة إليها .

لقد عرف العالم الإسلامي ، منذ الأيام الاولى للفتح ، ظهور تناقضات أمكن حلها باستمرار عن طريق اللين أحياناً ، وعن طريق العنف والقوة في أحيان أخرى ، ولم تكن (حروب الردة) في حد ذاتها الا نموذجاً لمثل هذه التناقضات التي تتعارض فيها القيادات المنعزلة أو النزعات الفردية مع الاتجاه الاسلامي العام ، ومع المصلحة العليا لجماهير العرب المسلمين . وكان حل هذه التناقضات يؤدي باستمرار إلى زيادة قدرة المسلمين ، على المدى البعيد .

ومقابل ذلك فقد كانت هناك تجارب ظهرت نتائجها المباشرة بزيادة قدرة المسلمين ، غير أن نتائجها غير المباشرة ـ أو البعيدة ـ انعكست بصورة سلبية على المصلحة العليا للمسلمين .

وتأتي (التجربة التاريخية للمعتمد بن عباد) لتحتل حيزاً خاصاً ومكاناً مميزاً بين هذه التجارب الأخيرة ، ومن هنا تبرز أهمية دراستها والتعرض لها . وفي إطار هذه التجربة بالذات ، يمكن التساؤل : هل كان باستطاعة (المعتمد) اللجوء الى خيار آخر ، غير خيار اللجوء الى ابن تاشفين والانتصار به ؟ ثم هل كان باستطاعة (المعتمد) الغدر بصاحبه (ابن تاشفين) بعدما أمكن

انجازه من نصر حاسم في موقعة الزلاقة وذلك وفقاً لما أشار عليه به ذلك الناصح ؟ ثم هل كان باستطاعة المعتمد لو أمكن له الغدر (بابن تاشفين) أن يأمن جانب (نصارى الشمال) الطامعين بكل الاندلس ، والذين يتربصون بها الدوائر ، ويكيدون لها باستمرار ؟

يظهر هنا الفارق المميز الذي يميز بين (سياسة المعتمد) القائمة على أسس تضع في اعتبارها قبل كل شيء ، دعم القدرة الذاتية للمسلمين ، وضمان توافر هذه القدرة للصراع الطويل الأمد . وبين سياسة ابن تاشفين القائمة ـ بحسب ما هو واضح ـ على توافر قدرة ذاتية خلال مرحلة معينة ، مع إهمال الأخذ بالمتطلبات التي تفرضها ضرورات الصراع الطويل الأمد ، وما قد تتعرض له هذه القدرة من القوة والضعف تبعاً لمتحولات الصراع .

لقد أبرزت الأوابد ـ الشعرية ـ الأندلسية مجموعة غير محدودة من الشواهد التي ترسم معالم السياسة الاستراتيجية للمعتمد وابن تاشفين . بقد ما تبرز أيضاً طبيعة الظروف التي أحاطت بالمعتمد ، ملكاً ، وشاعراً ، وفارساً . وإذا كان الباحثون والمؤرخون يلجؤون الى الأوابد الحجرية لاستقراء كتاباتها من أجل الكشف عن بعض الحقائق ، فقد حفظ التراث الشعري الاندلسي من المؤشرات ما يبرز الحقائق بجلاء تام ووضوح كامل.

١ ـ المعتمد شاعراً

لقد كان المعتمد خاصة ، وبني عباد عامة ، يمارسون صياغة الشعر ، ويرتاحون إلى الشعراء ، والعربي مطبوع على الشعر ، يستعذبه ويطرب له ويتناقل أبياته ، ويتباهى بدرره ومصوغاته ، فكان في ذلك بعض ما حفظ للمعتمد آثاره وأخباره ، فمن ذلك قوله يوم اعتقل :

إن يسلب القـوم العـدى ملكي وتسلمـني الـجمـوع
فـالـقـلب بـيـن ضـلوعـه لم تسلم القـلب الضـلوع
قـد رمـت يـوم نـزالهـم أن لا تحـصنني الـدروع
وبرزت ليس سوى القميص .. على الحشا شيء دفوع
أجـلي تـأخـر لم يـكـن بـهـواي ذلي والـخضـوع
مـا سـرت قط الى القتـا ل وكان من أملي الرجوع
شـيم الألى أنـا منـهـم والأصـل تتبـعـه الفـروع

وقال المعتمد بعدما خلع وسجن :

قبـح الـدهـر فمـاذا صنعـا كلمـا أعطى نفيساً نـزعـا

قد هوى ظلماً بمن عادته أن ينادي كل من يهوي: لَعا
من إذا قيل الخنى صمٌّ، وإن نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع في نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة جبرَ الله العفاة الضيعا

ومن قوله متضرعاً:

مولاي أشكو إليك داء أصبح قلبي به قريحا
سخطك قد زادني سقاماً فابعث إليَّ الرضى مسيحا

ومن قوله يتصبر:

داوي ثلاثته، بلطف ثلاثة فثنى بذاك رقيبه لم يشعر
أسراره بتستر، وأُوارُهُ بتصبر، وخباله بتوقر[1]

بمثل هذه الروح الشاعرية التي لم تفارق المعتمد حتى في أشد ساعات الضيق والعسرة، كان المعتمد يمارس إدارة الحكم والدولة. وفي قصة استيلاء المعتمد على قرطبة غنى عن كل بيان. فقد استطاع المعتمد إعمال الحيلة والدهاء حتى أمكن له ضم (قرطبة) وأحوازها الى مملكته. ثم صحب حاشيته ووزراءه الى قصر قرطبة. فأمضى هؤلاء سحابة نهارهم في مراتع القصر وملاعبه، جنانه وحدائقه، حتى اذا أقبل المساء، وافاهم رسول المعتمد يحمل رقعة كتب عليها:

حَسَدَ القصرُ فيكم الزهراء ولَعَمْري وعَمْركم ما أساءَ

---

(١) نفح الطيب ٤/٩٢ و ٩٣ و ٩٦ و ٢٧٧.

قد طلعتم بها شموساً صباحاً فاطلعوا عندنا بدوراً مساء

وأسرع أفراد الحاشية ، ورجال القصر الى الزهراء حيث كان ينتظرهم المعتمد في مجلسه الذي وصفه الوزير الفقيه أبو الحسين ابن سراج[1] بما يلي .

« سار الجميع الى قصر البستان - بباب العطارين فألفوا مجلساً قد حار فيه الوصف ، واحتشد فيه اللهو والقصف ، وتوقدت نجوم مدامه ، وتأودت قدود خدامه ، وأربى على الخورنق والسدير ، وأبدى صفحة البدر من أزرار المدير ، فأقاموا ليلتهم ما عراهم نوم ، ولا عداهم عن طيب اللذات سَوْم ، **وكانت (قرطبة) منتهى أمل المعتمد . وكان روم أمرها أشهى عماله، وما زال يخطبها بمداخلة أهليها ،ومواصلة واليها ، إذ لم يكن في منازلتها قائد، ولم يكن إلا حيل ومكائد،لاستمساكهم بدعوة خلفائها ، وأنفتهم من طموس رسوم الخلافة وعفائها ، وحين اتفق له تملكها ، وأطلعه فلكها ، وحصل في قطب دائرتها ، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها ، فقال :**

مَنْ للملوك بشَأو الأصيْدِ البَطَلِ ؟
هيهاتَ جاءَتكُمُ مَهْدِيةُ الدُّولِ
خطبتُ قرطبة الحسناء إذ مَنَعَتْ
من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غَدَت عاطلاً حتى عرضتُ لها
فأصبحتْ في سَرِيِّ الحلي والحلل

---

(١) نفح الطيب ١/٦٢٤ - ٦٢٧ .

عِـرْسُ الملوك لـنــا في قـصــرْهــا عُـرُسٌ
كــل الــمــلوك بــهــا فــي مــأتــم الــوجَــل
فــراقــبــوا عـــن قـــريـــب لا أبــالــكـــم
هــجــوم لــيــث بــدرع الــبــأس مــشــتــمــل

ولما انتظمت قرطبة في سلك المعتمد واتسمت بملكه ، أعطى ابنه الظافر زمامها ، وولاه نقضها وإبرامها ، فأفاض فيها نداه ، وزاد على أمده ومداه ، وجملها بكثرة حبائه ، واستقل بأعبائها على فنائه ، ولم يزل فيها آمراً وناهياً ، غافلاً عن المكر ساهياً ، حُسْنَ ظنٍ بأهلها اعتقده ، واغتراراً بهم ما رواه ولا انتقده ، وهيهات كم من ملك كفنه أهل قرطبة بدمائه ، ودفنوه بذمائه . وكم من عرش ثلوه ، وكم من عزيز ملك أذلوه ، إلى أن ثار فيها (ابن عكاشة) ليلاً ، وجرَّ إليها حرباً وويلاً . فبرز (الظافر بن المعتمد) منفرداً عن كماته ، عارياً من حماته ، وسيفه في يمينه، وهاديه في الظلماء نور جبينه ، فإنه كان غلاماً كما بلله الشباب بأندائه ، وألحفه الحسن بردائه ، فدافعهم أكثر ليله ، وقد منع منه تلاحق رَجْله وخيله ، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعَا ، ولا استقل منها ولا سعى . فترك ملتحفاً بالظلما ، تحت نجوم السما ، معفراً في وسط الحمى ، تحرسه الكواكب بعد المواكب . ويستره الجنْدرسِ بعد السندس ، فمر بمصرعه سَحَراً أحد أئمة الجامع المغلسين ، فرآه وقد ذهب ما كان عليه ومضى ، وهو أعرى من الحسام المنتضى ، فخلع رداءه عن منكبيه ونضاه ، وستره به ستراً أقنع المجد به وأرضاه ، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة ، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة ، فكان

المعتمد إذا تذكر صَرعته ، وسعر الحزنُ لوعته ، رفع بالعويل نداءه وأنشد :

ولم أدْرِ من أَلقى عليه رِداءَهُ[1].

ولما كان الغد ، حز رأس (الظافر بن المعتمد) ورفع على سن رمح ، وهو يشرق كنار على علم ، ويرشق نفس كل ناظر بألم ، فلما رمقته الأبصار ، وتحققته الحماة والأنصار ، رموا أسلحتهم ، وسووا للفرار أجنحتهم ، فمنهم من اختار فراره وجلاه ، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه . وشغل (المعتمد) عن رثائه بطلب ثأره ، ونصب الحبائل لوقوع (ابن عكاشة) وعثاره ، وعدل عن تأبينه ، إلى البحث عن مفرقه وجبينه ، فلم تحفظ له فيه قافية ، ولا كلمة للوعته شافية ، إلا إشارته إليه في تأبين أخويه (المأمون والراضي) المقتولين في أول النائرة ، والفتنة الثائرة (عندما قام المرابطون بعزل المعتمد عن مملكته . وقتلوا ولديه) .

* * * *

وكان إحساس (المعتمد) المرهف ، وروحه الشاعرية ـ الرومانسية ـ هما دليله في العمران ، كما كان شأنهما في إدارة الملك ، ومن ذلك ما ذكر عن (مدينة طريانة) الممتدة على شاطىء النهر الأعظم ، في مقابلة النصف من حضرة (إشبيلية)

---

(١) صدر بيت لأبي خراش الهذلي ، وعجزه :

(على أنهُ قَدْ سُلَّ عَنْ ماجِدٍ مَحْضِ) .

والمشهورة بحماماتها وأسواقها الضخمة ، حيث بنيت المدينة على تاج مطل على النهر . ومناظرها التي من جهة النهر ، سن فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس لئلا تنبو العين عنها ، ومن لا ينهض إلى ذلك فيبني من جهة الصحراء ، ولا يترك يبني من جهة النهر ، فجاءت بديعة فتانة المنظر ، أكثر شراجيبها منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون فيها من أصناف الطرب في الليالي القمرية ما هو مشهور في البلاد[1] .

ومن حكايات (المعتمد) في تعامله مع الناس ، ما ذكره (الحجاري) في كتاب (المسهب) حيث نقل عنه[2] : « . . . أهل إشبيلية أكثر العالم طنزاً وتهكماً ، قد طبعوا على ذلك ، وكان (المعتمد بن عباد) كثيراً ما يتستر ، ويشاركهم في واديهم وفي مظان مجتمعاتهم ، ويمازحهم ، ويُصْقل صدأ خاطره بما يصدُرُ عنهم . ومر المعتمد ليلة بباب شيخ منهم مشهور بكثرة التندير والتهكم ، يمزج ذلك بحرد يضحك الثكلى ، فقال المعتمد لوزيره (ابن عمار) : تعال نضرب على هذا الشيخ الساقط الباب ، حتى نضحك معه ، فضربا عليه بابه ، فقال : من هو ؟ فقال ابن عباد : إنسان يرغب أن تقد له هذه الفتيلة ، فقال : والله لو ضرب ابن عباد بابي في هذا الوقت ما فتحته ، قال : فإني ابن عباد . قال : مصفوع ألف صفعة . فضحك ابن عباد حتى سقط الى الارض . وقال لوزيره : امض بنا قبل أن يتعدى القول

---

(١) المغرب في حلى المغرب ـ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر (ذخائر العرب ـ ١٠) ١٩٥٣ (٢/٢٩٣) .

(٢) المرجع السابق ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

إلى الفعل ، فهذا شيخ ركيك . ولما كان من غد تلك الليلة ، وجه له ألف درهم ، وقال لموصلها يقول له : هذا حق الألف صفعة ، متاع البارحة .

* * * *

ومما يروى عن (المعتمد) أيضاً أنه كان يتجول يوماً في أرجاء (اشبيلية) ومعه وزيره (ابن عمار) فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط ، فكشفت عن وجهها ، وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء ، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون به الجبس ، والجيارين الصانعين للجير . فالتفت المعتمد إلى موضع الجيارين فقال : (يا ابن عمار ـ الجيارين) ففهم مراده ، وقال في الحال : (يا مولاي ـ والجباسين) فلم يفهم الحاضرون المراد ، وتحيروا . فسألوا ابن عمار ، فقال له المعتمد : لا تبعها منهم إلا غالية . وتفسيرها أن ابن عباد صحف (الحَيا زين) بقوله (الجيارين) إشارة إلى أن تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت به . فقال(والجباسين) وتصحيفه (الخنا شين) أي هي وإن كانت جميلة بديعة الحسن ، لكن (الخنا شانها)[1]

* * * *

تلك لمحات عن (الشاعر المعتمد) تبرز بعض ما كان عليه أمره ، في شدته ورخائه ، في سلمه وحربه ، في سياسته وإدارته ، ويضيق المجال عن استيعاب أوابد المعتمد الشعرية ،

---

(١) نفح الطيب ٤/٢٦٠ .

فله في كل فن من فنون الشعر آثار لا تمحى . وشواهد لا تبلى جدتها مع الأيام . وكما عاش المعتمد أديباً شاعراً فقد كان كل أهل بيته شعراء مجيدين . وهو ما يمكن ملاحظته في مجريات البحث . ومن الطبيعي أن تتحول قصور بني عباد الى منتديات يلتقي فيها الأدباء والشعراء ، ويقصدها المبدعون والفنانون ، لا من دنيا الأندلس العربية الاسلامية وحدها وإنما من كل أرجاء العالم العربي الإسلامي . فكان ذلك تاجاً رفعه بنو عباد فوق تاج الملك والسلطان .



٢ ـ الشعراء والمعتمد

لقد عرف بلاط المعتمد في أشبيلية . مجموعة من الأدباء والشعراء ، قلما توافر مثلهم في بلاد أمير من الأمراء أو ملك من الملوك ، فازدانت بهم سماء الأندلس الإسلامية وأشرقت . لم يكن أقلهم (أبا بكر بن اللبانة) [1] أو ذا الوزارتين (أبو الوليد أحمد بن

(١) وردت ترجمته في (المغرب في حلى المغرب) تحقيق الدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر(ذخائر العرب ـ ١٠) ١٩٥٣ ـ (٤٠٩/٢) ما يلي : « أبو بكر محمد بن عيسى المشهور باللبانة) كان شاعراً يتصرف ، وقادراً لا يتكلف ، مرصوص المباني ، منمق الألفاظ والمعاني ، وكان من امتداد الباع ، والانفراد والانطباع ، كالسيف الصقيل الفَرَد ، توحد بالابداع وانفرد ، وذكر أن أمه كانت تبيع اللبن ، وأخبر بوفائه مع المعتمد بن عباد ، وتفجعه لدولته حين خلع عن ملكه . ترجم له (ابن بسام) في الذخيرة (النسخة المخطوطة) بالقسم الثالث الورقة ١٠٥ ، والفتح في القلائد ص ٢٤٥ . والمراكشي في المعجب ص ١٠٤ . وابن دحية في المطرب الورقة ١٣٤ وابن الآبار في التكملة ص ١٤٥ وقال : من جلة الأدباء وفحول الشعراء . وله كتاب (سقيط الدرر ولقيط الزهر) توفي بميورقة ـ جزر الباليئار ـ سنة ٥٠٧ هـ . ودفن بازاء (أبي العرب الصقلي) وهو أحد أربعة أدار عليهم (ابن سناء الملك) اختياراته من موشحات الأندلس » .

زيدون المخزومي ـ من بني مخزوم)[1] صاحب الحديث الشهير والقصة المعروفة مع ولادة بنت المستكفي أمير قرطبة . وكذلك (الوزير بن عبدون) والشاعر (ابن وهبون) و(أبا العرب الصقلي) و(ابن همديس) و(أبو الوليد حسان بن المصيصي) وكثير غيرهم . وجدير بالذكر أن (المعتضد ـ والد المعتمد) قد سار على النهج ورسم الطريق ، إذ كان شاعراً ، وكان قصره منتدى الشعراء ومقصدهم . وجاء ابناء (عباد المعتمد) فساروا في النهج ذاته وبأبيهم وبجدهم من قبله اهتدوا . فرفدوا الأدب الاندلسي خاصة بمعين ثر لا ينضب ، وتركوا للدنيا تراثاً ضخماً تتجاوز أهميته ما هو معروف من التقويم الادبي (من جودة المعاني وروعة المباني) لتصل إلى حد كونها (وثائق تاريخية) تسجل بدقة وأمانة حياة الاندلس الاسلامية في تلك الحقبة التاريخية المضطربة . والمهم في البحث هنا ، هو أن اخلاص المعتمد للشعراء وحبه لهم ، ورعايته لمجالسهم ، قد أكسبه حبهم له فبادلوه وفاء بوفاء ، إلا قلة منهم ، فانطلقت ألسنتهم تلهج بذكر ذلك المغدور به ـ المعتمد وتصور مأساته ، بعاطفة صادقة جياشة ، فكان في ذلك خلود (المعتمد) ملكاً وشاعراً وانساناً .

---

(١) وردت ترجمته في (المغرب في حلى المغرب (١/٦٣) : « زعيم الفئة القرطبية ، ونشأة الدولة الجهورية الذي بهر في نظامه ، وظهر كالبدر ليل تمامه ، فجاء من القول بسحر ، وقلده أبهى نحر ، لم يصرفه إلا بين ريحان وراح ، ولم يطلعه إلا في سماء مؤانسات وأفراح ، ولا تعدى به الرؤساء والملوك . وكلفت به تلك الدولة حتى صار ملهج لسانها ، وحل من عينها مكان انسانها . . حتى وقع له طلب أصاره إلى الاعتقال . . فتحيل لنفسه حتى تسلل من حبسه . . وحصل عند المعتضد بالله بن عباد كالسويداء من الفؤاد . . وولي ولده بعده وزارة المعتمد بن عباد » .

كان الشاعر (أبو اللبانة) من اكثر الناس تأثراً بالنازلة التي نزلت بساحة المعتمد ، فما إن عرف بنقل المعتمد وعائلته الى (أغمات) حتى أسرع يقطع البحر للقاء مولاه ، وجرى بين (الشاعرين) لقاء وصفه أبو اللبانة بقوله :

« وجرت بيني وبين ـ المعتمد ـ مخاطبات ألذ من غفلات الرقيب ، وأشهى من رشفات الحبيب ، وأدل على السماح من فجر على صباح » .

وكان تأثر (أبو اللبانة) كبيراً تعرضت له المصادر العربية بما يلي :

« زار الأديب أبو بكر بن اللبانة ـ المعتمد في سجنه ، وكان أحد شعراء دولته ، المرتضعين دِرَرَها ، المنتجعين دُرَرَها ، وكان المعتمد ـ رحمه الله ـ يميزه بالشغوف والإحسان ، ويجوزه في فرسان هذا الشأن ، فلما رآه وحلقات الكبل ـ القيد ـ قد عضت بساقيه عـض الأسود ، والتوت عليه التواء الأساود السود ، وهو لا يطيق إعمال قدم ، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً بدم ، بعدما عهده فوق منبر وسرير ، ووسط جنة وحرير ، تخفق عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، وتكِفُ الأمطار من راحته ، وتشرف الأقدار بحلول ساحته ، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيه ، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه ، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد ، ويثير فيه لوعة الحارث بن عُباد ، أبدع من أناشيد مَعْبَد ، وأصدع للكبد من مراثي أرْبد ، أو بكاء ذي الرُّمة بالمربد ، سلك فيها للاحتفاء طريقاً لاحباً ، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحباً ، فمن ذلك قوله :

انفض يديك من الدنيا وسكانها
فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلي قد كَتَمَتْ
سريرةَ العالم العلوي أغماتُ

دَرَوْهُ ليثاً فخافوا منه عاديةً
عذرتهم ، فلعدو الليث عاداتُ
لو كان يُفْرَجُ عنه بعض آونة
قامت بدعوته حتى الجماداتُ
بحر محيط عهدناه تجيء له
كنقطة الدارة السبعُ المحيطاتُ
لهفي على (آل عباد) فإنهمُ
أهلةٌ مالها في الافق هالاتُ
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة
كانت لنا بكرٌ فيها ورَوْحاتُ

ويذكر (ابن اللبانة) أبناء المعتمد الاربعة وهم (الرشيد عبيد الله ، والراضي يزيد ، والمأمون والمؤتمن) وهم الذين طالما أحبهم وأحبوه ، فرثاهم في قصيدة طويلة ، جاء فيها وهو يخاطب المعتمد :

يغيثك في محْلٍ ، يعينك في ردى
يروعك في درع ، يروقك في بُردِ
جمالٌ ، وإجمالٌ ، وسبقٌ وصولةٌ
كشمس الضحى، كالمزن ،كالبرق، كالرعد

بمهجته شاد العلا ثم زادها
بناء بأبناء جماجمة لُدّ

وتمضي سنتان والمعتمد في سجنه ، غير أن ذكراه تبقى حية قوية في نفس (ابن اللبانة) فيقول في سنة (٤٨٦ هـ) قصيدة طويلة ، يذكر فيها (المعتمد) رهين السجن في (أغمات) منها :

تنشق بريحان السلام فإنما
أفضى به مسكاً عليك مختما
وقل لي مجازاً ، إن عدمت حقيقةً
لعلك في نعمى ، فقد كنت منعما
لئن عظمت فيك الرزية ، إننا
وجدناك منها في الرزية أعظما
قناة سعت للطعن حتى تقسمت
وسيفُ أطال الضرب حتى تثلما
وكنا رعينا العِزَّ حول حماهُمُ
فقد أجدبَ المرعى وقد أقفر الحمى
حكيتَ وقد فارقت ملكك مالكاً
ومن وَلَهي أحكي عليك متمماً
مصابٌ هوى بالنيرات من العلا
ولم يُبق في أرض المكارم مَعْلما
تضيقُ عليَّ الأرضُ حتى كأنما
خلقتُ وإياها سواراً ومعصماً
وحار ابنك الإصباح وجداً فما اهتدى
وغار أخوك البحر غيضاً فما طمى

ومـــا حـــلَّ بـــدر الـــتـــمِّ بـــعـــدك دارةً
ولا أظهـــرت شمس الـــظهيـــرة مبـــسمـــا
قضى الله أن حـــطوك عن ظهـــر أشقرٍ
بـــشـــم وإن أمـــطوك أشـــأمَ أدهـــمـــا

ويعلم (ابن اللبانة) أن القيود قد فكت عن (المعتمد) فيشير إلى ذلك بقوله :

قيـــودكَ ذابت فـــانـــطلقـــتَ لقـــد غـــدت
قـــيـــودكَ مـــنـــهـــم بـــالـــمكـــارم أرْحَـــمـــا

ويمضي المعتمد أيامه ، تندبه منابره وأعواده ، ولا يدنو منه زواره ولا عواده ، أسفاً تتصعد زفراته ، وتطّرد اطّراد المذانب عبراته ، لا يخلو بمؤانس ، ولا يرى إلا عريناً بدلاً من تلك المكانس ، ولما لم يجد سلواً ، ولم يؤمل دنواً ، ولم ير وجه مسرة مجلُواً . تذكر منازله فشاقته ، وتصور بهجتها فراقته ، وتخيل استيحاش أوطانه ، وإجهاش قصره إلى قطانه ، وإظلام جوه من أقماره ، وخلوه من حراسه وسماره .

وكان القصر الزاهي من أجمل المواضع لديه وأبهاها ، وأحبها إليه وأشهاها ، لإطلاله على النهر ، وإشرافه على القصر ، وجماله في العيون ، واشتماله بالزهر والزيتون ، وكان له به من الطرب ، والعيش المزري بحلاوة الضَّرَب ، ما لم يكن بحلب لبني حمدان ، ولا لسيف بن ذي (يَزَن) في رأس غُمدان . وكان كثيراً ما يدير به راحه، ويجعل فيه انشراحه، فلما امتد الزمان إليه بعُدوانه، وسد عليه أبواب سلوانه، لم يحنَّ إلا إليه، ولم يتمنَّ غير الحلول لديه ، فقال :

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ
سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ
وتندبه البيضُ الصوارمُ والقنا
وينهلُّ دمعٌ بينهن غزيرُ
مضى زمنٌ والملك مستأنسٌ به
وأصْبَحَ منه اليومَ وهوَ نفورُ
برأي من الدهر المضلَّلِ فاسدٍ
متى صلحتْ للصالحين دهورُ
أذلَّ بني ماء السماء زمانهُم
وذُلُّ (بني ماء السماء) كبيرُ
فيا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
أمامي وخلفي روضةٌ وغدير
بمُنبتة الزيتونِ مورثةِ العُلا
تغنّي حَمامٌ أو ترنُّ طيورُ
بزاهرها السامي الذي جاده العُلا
تشير الثُريا نحونا ونشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعوده
غيورين والصب المحبُ غيورُ
تراه عسيراً لا يسيراً منالُهُ
ألا كلُّ ما شاء الإلهُ يسيرُ[1]

وكان (ابن اللبانة) بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس

---

(١) نفح الطيب ٢٥٦/٤ ـ ٢٥٨ و ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

أُنسه يوم ورد إليه خبر استيلاء (يوسف بن تاشفين) على غرناطة (سنة ٤٨٣ هـ) فتفجع وتلهف ، واسترجع وتأسف ، وذكر قصر غرناطة ، فدعونا لقصره بالدوام ، ولملكه بتراخي الأيام ، وأمر عند ذلك (أبا بكر الإشبيلي) بالغناء ، فغنى :

يا دار ميةَ بالعلياء فالسندِ
أقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأمدِ

فاستحالت مسرته ، وتجهمت أسِرَّته ، وأمر بالغناء من ستارته ، فغنى :

إن شئت أن لا ترى صبراً لمضْطبرٍ
فانظر على أي حالٍ أصبح الطَّلَلُ

فتأكد تطيره ، واشتد اربداد وجهه وتغيره ، وأمر مغنية أخرى من سراريه بالغناء ، فغنت :

يا لهف نفْسي على مال أُفرِقه
على المقلين من أهل المرواءتِ
إنَّ اعتذاري إلى من جاء يسألني
ما لستُ أملك من إحدى المصيبات

وهنا تدخل (ابن اللبانة) فقال :

محلُّ مكرمة لا هُدَّ مَبْناه
وشملُ مأثرةٍ لا شتت الله
البيت كالبيت لكن زاد ذا شرفاً
أن الرشيدَ مع المعتد ركناهُ

ثــاوٍ عــلى أنجـم الجــوزاء مـقـعـده
وراحــلٌ فـي سبيــل الـسـعــد مـســراهُ
حتم على الملك أن يقـوى وقـد وصلت
بــالـشــرق والـغــرب يـمـنــاه ويُـســراهُ
بــأسٌ تــوقــد ، فــاحـمــرتْ لـواحِـظُهُ
ونــائــلٌ شــبَّ ، فــاخـضــرت عــذاراهُ

تلك هي بعض قصة شاعر بلاط (المعتمد بن عباد) . وذلك هو بعض ما قاله (ابن اللبانة) في المعتمد ، وآل المعتمد ، انها قصة الاعجاب بالفضائل التي انفرد بها (المعتمد) وأهـلـه بقدر ما هي قصة الوفاء لمن هم أهل للوفاء ، ولم تكن هذه القصة الشعرية على كل حال هي القصة الوحيدة التي حفل بها بلاط المعتمد في علاقته مع الشعراء[1] .

لقد اشتهر (وزير المعتمد ـ ابو الوليد بن زيدون) بأنه شاعر الغزل ، وشاعر ولادة ، غير أن ابن زيدون هذا ، رغم ما اشتهر به من عدم الوفاء إلا لنفسه ، فقد كان وفياً مع المعتضد ثم مع ابنه المعتمد بسبب ما عرفه عنهما وعن بلاطهما من الفضائل العربية ـ الاسلامية الأصلية . فقال في المعتمد ، مخاطباً له :

مهمــا امتـدحتُ ســواك قبـل فــإنمــا
مــدحـي إلى مــدحـيٍ لــك استــطرادُ
تـغشـى الميــادين الـفــوارسُ حـقـبـةً
كيـمــا يــعــلـمـهــا الــنـزالُ طــرادُ

---

(1) المرجع السابق ـ ص ٩٥ و ٩٩ .

وكـان (ابن زيدون) قـد رثى (المعتضد) وامتـدح (المعتمد) بقصيدة طويلة ، جاء فيها :

هو الدهر فاصبـر للذي أحدث الـدهرُ
فمن شيم الأحــرار في مثلهـا الصبــرُ
ستصبـر صبـر اليـأس أو صبـر حسبـة
فـلا تؤثـر الـوجْـهَ الـذي معـه الــوزرُ
حــذارك من أن يعـقب الــرزء فتنــةً
يضيق بهـا عن مثـل إيمــانـك العــذرُ
إذا آسـف الـشكــل الـلبيـب فـشـفَـهُ .
رأى أفـدح الثكلين أن يـذهب الأجــر
هـنــاك التُّـقـى والـعـلم والـحـلم والـنـهـى
وبــذل الـلهــا والبــأس والـنـظم والـنـثــر
هـــمــامٌ إذا لاقــى الـــمــنــاجــز رَدَّهُ
وإقــبــالُـــهُ خـــطرٌ وإدبــاره حـــصــرُ
عـــطاءٌ ولامَـــنٌ ، وحـــكــم ولا هـــوى
وحـــلمٌ ولا عـــجــزٌ ، وعـــزٌ ولا كـــبــرُ
قـــد استــوفت الـنعـمــاءُ فيــك تـمــامهــا
عـلـيـنــا فــمـنــا الــحــمــد لله والــشـكــرُ

وإذن، فقد كان فضائل(المعتمد)وما عرف عن (بني عباد)من الالتزام بالقيم هي التي أرغمت (ابن زيدون) على التكيف مع هذا الوسط ، والتخلي عن بعض ما هو مطبوع فيه من الخصال غير الحميدة ـ مثل عدم الوفاء ـ . وكان اسلوب المعتمد (ومن قبله أبوه المعتضد) في ادارة الملك والدولة ، وفي التعامل مع رجال الدولة

خاصة ، وجماهير الشعب عامة ، من العوامل التي اسهمت يقيناً في دفع (ابن زيدون) إلى احترام الفضائل التي كان (بنو عباد) من أصحابها وروادها . ويذكر هنا أن المعتمد كتب مرة الى (ابن زيدون) :

قصرتُ في نظمي فاعذر فَمن
ضاهاكَ في التقصير معذورُ
فأنت ، إن تنظم وتنثر فقد
أعْوزَ منظومٌ ومنثورُ
لا يَعْدُكُمْ روضٌ من الحظ في الـ
إكرام والترفيع ممطور

فكتب إليه (ابن زيدون) قصيدة طويلة منها :

حظيّ من نعماك موفورُ ... وذنب دهري بك مغفورُ
وجانبي إن رامه أزمة ... حجرٌ لدى ظلكَ محجورُ
يا ابنَ الذي سربُ الهدى آمنٌ ... منذ انبرى يحميه مخفورُ
وآمر الدهرِ الذي لم يزل ... يُصغي إليه منه مأمورُ
ألبس منك الدهر أسنى الحِلى ... بظافر منحاهُ منصورُ
يا مرويَ المأثورِ يا من له ... مجدٌ مع الأيام مأثورُ
يا آل عباد مُوالاتكم ... زاكٍ من الأعمال مبرورُ
إن الذي يرجو موازاتكم ... من المناوين لمغرورُ
مكانه منكم كما انحطّ عن ... منزلةِ المرفوع مجرورُ
لا زلتم في غبطة ما انجلى ... عن فَلَقِ الإصباحِ ديجورُ
ولا يزل يَجري بما شئتم ... أعمارَكُم لله مقدورُ

وقد كان (للمعتمد) كما كان لأبيه (المعتضد) من قبله قصص طريفة ، وحكايات حلوة مع الأدباء والشعراء ، وهي تبرز فضل (بني عباد ـ احفاد المنذر بن ماء السماء) في نشر اللغة العربية في الأندلس ودعم مكانتها ، حتى أقبل اليهود والنصارى على تعلمها واتقانها بل وحتى قرض الشعر فيها ـ .

ومما حفظ التاريخ الأندلسي (للمعتضد) حكايته مع الشاعر (ابن جاخ) الذي ورد على المعتضد ، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء . فسألوه ، فقال : إني شاعر . فقالوا : أنشدنا من شعرك ، فقال :

إني قصدت إليكَ يا عبادي   قصد القليقِ بالجري للوادي

فضحكوا منه ، وازدَرَوْهُ ، فال بعض عقلائهم : دعوه ، فإن هذا شاعر ، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ، ويندرج في سلكهم ، فلم يبالوا بكلام هذا الرجل ، وتنادروا على المذكور ، فبقي معهم ، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص لا يدخل فيه على الملك غيرهم ، وربما كان يوم الإثنين ، فقال بعض لبعض : هذه شنعة بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا ، ويجترىء على الدخول معنا . فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس (المعتضد) . وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم ، ويكون ذلك حسماً لعلة إقدام مثله عليهم . فلما كان اليوم المذكور ، وقعد السلطان في مجلسه ، ونصب الكرسي لهم ، رغبوا أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم . فأمر بذلك ، فصعد

الكرسي ، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم ، فقال :

قطّعْت يا يومَ الندى أكبادي ... وحَرمْتَ عن عيني لذيذ رُقادي
وتركتني أرعى النجوم مسهَّداً ... والنار تُضْرم في صميم فؤادي
فكأنما آلى الظلامُ ألية ... لا يَنجُلي إلاّ إلى ميعادِ
يا بينَ بَينَ أينَ تقتاد النوى ... إبلُ الذين تحملوا بسُعادِ
ولرب خرقٍ قد قطعت نياطَهُ ... والليلُ يرفل في ثياب حِدادِ
بشملةٍ حَرْفٍ كأنَّ ذَميلَها ... سُرُحُ الرياح وكلُّ برقٍ غادي
والنجم يحدوها وقد ناديتها ... يا ناقتي عوجي على عبَّادِ
ملك إذا ما أضرمت نار الوغى ... وتلاقت الأجناد بالأجنادِ
فترى الجسومَ بلا رؤوسٍ تنثني ... وترى الرؤوس لقىً بلا أجسادِ
يا أيها الملك المؤمَّلُ والذي ... قدماً سما شرفاً على الأندادِ
إن القَريضَ لكاسدٌ في أرضنا ... وله هنا سوقٌ بغير كسادِ
فجلبت من شعري إليكَ قوافياً ... يغني الزمانُ وذكرها متمادي
من شاعر لم يضطلع أدباً ولا ... خطت يداهُ صحيفةً بمدادِ

فقال المعتضد : أنت الجاخ ؟ فقال : نعم . فقال : اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء وأحسن إليه ، ولم يأذن في ذلك اليوم لأحد بعده .

ومثل تلك القصة ، كقصة (المعتمد) مع الشاعر (أبا العرب الصقلي) الذي حضر مجلس المعتمد يوماً ، وقد احتفل في ذلك اليوم بتنضيد المجلس ، وإحضار الطرائف الملوكية ، وكان في الجملة تمثال جمل من بلور ، وله عينان من ياقوتتين ، وقدحليً

بنفائس الدر . فأنشده (أبو العرب) قصيدة ، فأمر له بذهب كثير مما كان بيده من السكة الجديدة ، فقال معرضاً بذلك الجمل : ما يحمل هذه الصلة إلا جمل ! فقال المعتمد : خذ هذا الجمل ، فإنه حمال أثقال ، فارتجل (أبو العرب) شعراً منه :

أهـديتني جمـلاً جـونـاً شفعـتَ بـهِ
حمـلاً من الفضـة البيضـاء لـو حمـلا
نـتـاج جـودكَ في أعـطانِ مكـرمـةٍ
لا قـد تصـرف من منـعٍ ولا عقـلا
فـاعجب لشـأني ، فشـأني كله عجبٌ
رفهتني فحملتُ الحمـل والجمـلا[1]

لقد بقيت لغة (الشعر) هي اللغة الرسمية في بلاط (بني عباد) حتى لم يعد هناك من حدث كبر أو صغر ، إلا وكان للشعر فيه مجال ، والشواهد هنا كثيرة ولا حصر لها ، مثال ذلك ما ذكر من أخبار المعتمد ، أنه جلس يوماً ، والبزاة تعرض عليه ، فاستحث الشعراء في وصفها ، فصنع (ابن وهبون) بديهاً :

للصيدِ قبلك سنة مأثورة لكنها بكَ أبدع الأشياء
تمضي البزاة وكلما أمضيتها عاطيتها بخواطِرِ الشعراءِ

ويحكى أن رجلاً رأى في منامه إثر النازلة التي نزلت بالمعتمد ابن عباد، كأن رجلاً صعد منبر جامع قرطبة ، فاستقبل الناس ، وأنشد هذه الأبيات متمثلاً :

---

(١) نفح الطيب ٤/٢٤٣ ـ ٢٤٤ و ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

ربَّ ركب قد أناخوا عيسهم   في ذرى مجدهُم حين بسق
سكت الـدهر زمـانـاً عنهم   ثم أبكاهم دماً حين نطق

يمكن بعد ذلك التوقف عند الشاعر (أبو عبد الله محمد بن عُبادة المعروف بابن القزاز[1])وهو شاعر الغزل والموشحات . والذي وقف بين يدي (المعتمد بن عباد) وقد جرحت كفه يوم الزلاقة وقال فيه :

ثنـاؤك ليس تسبقه الـرياحُ   يَطِيرُ ومن نداك له جنـاحُ
لقد حَسُنت بك الدنيا وشَبَّتْ   فَغَنَّتْ وهي نــاعمـة رداح
تطيبُ بذكـرك الأفواه حتى   كـأنَّ رُضابَهَـا مِسْـكٌ وراحُ
ملكت عنانَ دهرِك فهو جارٍ   كما تَهْوى فليس له جماحُ.
جلبتَ إلى الأعادي أُسْدَ غاب   بــرائنهـا الأسِنَــةُ والصِفـاحُ
وقفتَ وموقفَ الهيجاء ضنكٌ   وفيه لباعِكَ الرَّحبِ انفساحُ
وألسِنَــةُ الأسِنَّةِ قــائـلاتٌ   إذا ظَهَـرَ المؤَيّدُ لا بَـراحُ
وقــالوا كفُـهُ جرحت فقلنـا   أعـاديـه تـوافِقُهـا الجــراحُ
وما أثَرُ الجِراحة مـا رأيتم   فتـوهِنها المنـاصلُ والـرماحُ
ولكن فاض سيل الجود فيها   فأمسى في جوانبها انسياحُ

---

(١) المغرب في حلى المغرب ٢/١٣٤ ـ ١٣٥ وفيه « أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ـ ترجم له ابن بسام ـ في الذخيرة ـ المجلد الثاني من القسم الأول ص ٢٩٩ وقال : من مشاهير الأدباء الشعراء ، وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ نظمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الاندلس . وهو سمن نسج على منوال ذلك الطراز ، ورقم ديباجه ، ورصع تاجه ، والفاظه في التوشيح شاهدة له بالتبريز والشفوف .

وقد صَحَّتْ وسَحَتْ بالأماني وفاضَ الجودُ منها والسماحُ

ثم ها هو الشاعر (أبو بحر يوسف بن عبد الصمد)[1] يسير في ركاب الشعراء ، ويهتز لما نزل بالمعتمد بن عباد من نكبة على أيدي المرابطين ، فيرثيه بدموع حارة عبر عنها بما يلي :

عزمٌ تضيقُ بجيشه البيداء ومنىً أقلُّ مَرَامِهـا الجوزاءُ
وصرامة لـو أنها لي لأمَـةٌ لم تمضِ فيها الصِّعدة السمراءُ
في عفةٍ أصْبَحَتْ مقسومـةً في الناس لم تَتَلَفَّع الحسناءُ
فلتلحـظ الغِزلان ، ولتتمايل الأ فنـانُ ، ولتترنـح الأنقـاءُ

وأخيراً ، لا بد من الإشارة الى تلك الحركة المضادة للمرابطين ، والتي اجتاحت الأندلس ، فوجدت تعبيراً لها على ألسنة الشعراء ، من أمثال : (أبو بكر يحيي بن سهل اليكي)[2] الذي قال :

---

(١) المغرب في حلى المغرب ٢/٢٠٣- ٢٠٤ وفيه « أبـو بحر يوسف بن عبد الصمد ، ترجم له ابن بسام - في الذخيرة - النسخة المخطوطة - في القسم الثالث - الورقة ١٢٦ - وقال : هؤلاء الصمديون قوم من ذوي الهيئات ، متقدمون في الكتابة وأدوات أهل النباهات . وذكر - ابن بسام - أنه من ولد السمح بن مالك بن خولان - أحد سلاطين الاندلس (من ولاة الفتح قبل قيام الدولة الأموية بالاندلس) ونشأ أبو البحر كاسمه في نثره ونظمه .

(٢) المغرب في حلى المغرب ٢/٢٦٦ - ٢٦٨ ، وفيه : « أبو بكر - يحيى بن سهل اليكي - هجاء المغرب . هو ابن رومي عصرنا ، وحُطيئَةُ دهرنا ، ترجم له الضبي - من المسهب - في البغية ص ٤٨٨ - وقال : شاعر تصرف في فنون ، وتعرف حتى بالضب والنون ، خبيث الهجاء» . وذكره ابن دحية في - المطرب - الورقة ٩٥ . انظر معجم البلدان - لياقوت - في فاس - حيث روى له أشعار في هجائها .

في كلِ من ربط اللثامَ دناءة ولـو أنه يعلو على كيـوانِ
ما الفخر عندهُم سوى أن يُنقلوا من بطن زانية لظهر حصانِ
المنتمـــون لحِمْيَـــر لكنهــم وضعوا القرون مواضع التيجانِ
لا تـطلبن مرابـطاً ذا عِفَةٍ واطلب شعاع النار في الغُدرانِ

وكذلك قوله :

إن المرابط لا يكون مرابطاً حتى تـراهُ إذا تراهُ جبـانا
تجْلُو الرعيّة من مخافة جَوْره لجـلائه إذ يلتقي الأقـرانـا
إن تظلمونا ننتصف لنفوسنا يجني الرِّجالُ فنأخذ النسوَانا

الفَصْل الرَابِع

المعتمد وتجربته التاريخية

١ ـ المعتمد ـ والسياسة الاستراتيجية
٢ ـ الزلاقة ـ وادارة الحرب
٣ ـ الزلاقة ـ وموقعها في التاريخ
٤ ـ كلمة أخيرة

المعتمد وتجربته التاريخية

لعل العرض السابق ـ على ايجازه ـ وبما تضمنه من نثر وشعر ، ومواقف ومقولات ، هو عرض كاف لإبراز معالم التجربة التاريخية ، التي بدأت بتعاون اكبر شخصيتين قياديتين عرفهما المغرب والأندلس مع نهاية القرن الخامس للهجرة ـ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ـ ثم انتهى ذلك التعاون ـ بعد معركة الزلاقة ، بالقضاء على مملكة بني عباد في جملة ممالك الطوائف التي أزالها حكم المرابطين ، بهدف تأمين وحدة القيادة سياسياً وإدارياً وعسكرياً . وفي الواقع فإن التعاون بين المغرب العربي الإسلامي والأندلس ، لم يتوقف في يوم من الأيام ، كما أنه استمر بعد ذلك ـ في عهد الموحدين أبناء عبد المؤمن ـ ثم في عهد ملوك بني نضر أو بني الأحمر في غرناطة ، غير أن تجربة المعتمد تعتبر نموذجاً مميزاً ضمن المجرى التاريخي لهذا التعاون .

وبايجاز : لقد تم فتح الأندلس بفضل المجهود المشترك للمسلمين من عرب وبربر خاصة ، وكافة العروق والأجناس التي

انضوت تحت راية الإسلام ـ عامة ـ وأعقب الفتح مرحلة من الركود أو الجمود ، عادت فيها النعرة البربرية ، أو العصبية الجاهلية بتعبير أكثر دقة إلى الظهور ـ وكان موقف البربر حديثو العهد بالاسلام ، مماثلاً لموقف الفرس ، الذين قال قائلهم لابي موسى الأشعري في معركة (يوم السوس) سنة ١٧ هـ ـ ما يلي :

« لسنا مثلكم في هذا الدين ، ولا بصائرنا كبصائركم ، ولم تلحقنا بأشرف العطاء »[١] .

ولقد زاد انقسام الولاة العرب وصراعهم بعضهم ضد بعض من حدة الأزمة ، واشتداد العصبية الجاهلية. حتى إذا جاء الحكم الاموي (عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش) أمكن له القضاء ـ ظاهرياً على الأقل ـ على النزعات القبلية ـ العربية والبربرية ، وتوطدت السيادة العربية ـ الإسلامية على الأندلس ، ولم يكن معنى ذلك إضعاف الوجود البربري في دولة الأندلس ، بقدر ما كان يعني الاندماج في الدولة . حتى إذا ما ضعف أمر الدولة الاموية ـ بزوال حكم الحاجب المنصور ـ عادت العصبية البربرية للظهور ، فكان ملوك بعض الطوائف المستقلة من البربر ، وعندما ضعفت هذه الممالك ، وجاء حكم (المرابطين)

---

(١) تاريخ الطبري (ذخائر العرب ـ ٣٠) ٤ / ٩٠ ـ وتتلخص قصة هذه المقولة بأن أبو موسى الأشعري لاحظ تلكؤ (سياه) الفارسي وجنوده في القتال إلى جانب المسلمين العرب فقال له أبو موسى : يا أعور ، ما أنت وأصحابك كما كنا نرى ! فقال له (سياه) ما سبقت الاشارة اليه : لسنا مثلكم في هذا الدين . . . فكتب أبو موسى بذلك للخليفة عمر الذي أجابه : ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء ، وأكثر شيء أخذه أحد من العرب . فطابت بذلك نفوس (الفرس) وأحسنوا البلاء .

ازيلت كل ممالك الطوائف ، كانت في معظمها قد (تعربت) فاعتبر الاندلسيون من عرب وبربر أن هذه الموجة غريبة عنهم ، ضعيفة الروابط بهم ، لا سيما وأن الحكم في هذه الموجة لم يضع باعتباره الظروف المحلية التي وصلت إليها ممالك الأندلس من التطور ، وكان من نتيجة ذلك شعور المرابطين بنوع من العزلة ، الأمر الذي دفعهم لفرض وجودهم بالقوة ، وهو الامر الذي تؤكده كافة الشواهد المتوافرة ، غير أن هذا الحكم لم يستمر طويلاً على كل حال . وجاء الموحدون فانتهجوا سياسة اكثر اعتدالاً تجاه الاندلسيين . وقد أدى ضعف هؤلاء بعد ذلك إلى الاندماج في بوتقة مسلمي الأندلس ثم جاء تعاظم التهديد الخارجي وغزو نصارى الشمال باستمرار للجنوب الاسلامي ، إلى زيادة التلاحم بين المسلمين من عرب وبربر ، حتى لتكاد النزعة العصبية تزول تماماً ، ويختفي كل اثر لها . وأصبحت راية الجهاد المرفوعة باستمرار هي الرباط القوي الذي أزال رواسب العصبية الجاهلية .

أدى تصعيد الحرب الصليبية الى زيادة تلاحم المسلمين في المشرق والمغرب ، وفي هذا الاطار أدرك الاندلسيون (وبصورة خاصة ملوك غرناطة ـ بني الأحمر) أنه من المحال عليهم مجابهة ثقل الهجمة الصليبية الشاملة بقدرات (ما بقي من الاندلس المعزولة) . فكان أبناء المغرب العربي ـ الاسلامي هم حملة راية الجهاد ، وعرف (مضيق المجاز) حركة هياج مستمرة في التنقل بين عدوتي الاندلس والمغرب للدفاع عن مسلمي الاندلس . وظهرت الدولة المغربية (فاس والمغرب) كقاعدة استراتيجية

لدعم الاندلس .

ولعل أوضح من أبرز هذا الاتجاه هو لسان الدين الخطيب ، وزير بني الأحمر- الذي كتب الى سلطان (فاس والمغرب) رسائل كثيرة ، يستنهض همته للجهاد ، ومنها ما جاء في رسالته التالية :

« . . . أننا إنما نجري أمورنا مع هذا العدو الكافر الذي رمينا بجواره ، وبلينا والحمد لله بمصادمة تياره ، على تعداد أقطاره ، واتساع براريه وبحاره ، بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق ، وأسواق النِفاق غير ذات نفَاق . والجماهير تحت عهد الله تعالى وميثاق ، فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عَقدْ ، ووقع بينهما في قبول الطاعة رد ، ساءنا واقعه ، وعظمت لدينا مواقعه ، وسألنا أن يتدارك الخرق راقعه ، لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا ، وتفرغ العدو إلى ضرنا ، فكيف إذا وقعت الفتنة في صقعنا وقطرنا ، إنما هي شعلة في بعض بيوتنا وقعت ، وحادثة إلى جهتنا أشرعت ، وإن كان لسوانا لفظها فلنا معناها ، وعلى وطننا يعود جناها ، فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها ، وأسعى في إصلاح فسادها . . وما الظن بدار فسد بابُها ، وجزيرة لا تستقيم أحوال من بها إلا بالسكون . . حتى تقضي منه باعانتكم الديون ، وإن اضطرابها إنما هوداء ، نستنصر من رأيكم فيه بطبيب . . ونحن فيه يد أمام يدكم ، ومقصدنا فيه تبع لقصدكم ، وتصرفنا على حد إشارتكم

جار ، وعزمنا إلى منتهى مرضاتكم مُتبارٍ »[1] .

إن إمعان النظر في النص السابق ، على قصره ، يؤكد مجموعة من الحقائق ، لعل من أبرزها :

أولاً : ذلك التلاحم الوثيق بين الأندلس ، وبين المغرب العربي ـ الاسلامي باعتباره القاعدة الاسلامية الصلبة للاندلس ، وعلى اعتبار أنه يشكل العمق الجيو ـ استراتيجي للاندلس ـ وفقاً للمصطلحات الحديثة . الأمر الذي يفرض تنسيق التعاون باستمرار ، وهو ما أشار اليه لسان الدين الخطيب بقوله : (بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق) .

ثانياً : انه من المحال على الاندلس ـ بقدراتها وامكاناتها ـ احتمال ثقل الهجمة الشرسة التي تداعت اليها أمم النصرانية من كل حدب وصوب . وهو ما أشار إليه أيضاً لسان الدين الخطيب بقوله : (بلينا ، والحمد لله ، بمصادمة تيار الكافر ، على تعداد أقطاره واتساع براريه وبحاره) .

ثالثاً : إن إدراك هذه الحقائق قد فرض بدوره ، على الأندلسيين وعلى المغاربة سواء بسواء ، أن يكون تنسيق التعاون مخلصاً ، وعلى أسس واضحة وصريحة ، من أجل حماية مصالح المسلمين والدفاع عنهم ، وهو ما أشار إليه لسان الدين الخطيب بقوله : (بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق . وأسواق النفاق غير ذات نَفَاقْ . والجماهير تحت عهد الله

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٤٤٠ .

تعالى وميثاق) وإذن ، فإن تنسيق التعاون قد أخذ شكل مواثيق محددة ـ في التزاماتها ومسؤولياتها ـ حتى لا تكون في غير مصلحة المسلمين الذين يتم الدفاع عنهم ، والذين تقع مسؤولية حمايتهم ـ أمام الله ـ على عاتق الحكام ، وهم حملة أمانة الأمة ورعاتها لضمان أمنها وسلامتها أمام كل عدوان خارجي ، أو كل جور داخلي .

رابعاً : إن اهتمام الأندلسيين بأمنهم قد حملهم على الاهتمام بأمن قاعدتهم الخلفية (في عدوة المغرب) وإرساء قواعد هذا الأمن على أسس ثابتة (بموجب عقد) مع إظهار الحرص الشديد على عدم ظهور أي خلاف وعدم إتاحة الفرصة ـ لعناصر الفساد والإفساد ـ من أجل إحداث خرق ، وبذل كل جهد مستطاع عند ظهور مثل هذا الخرق لسد الثغرة وإصلاح الأمور بأسرع ما يمكن ـ حتى لا يتسع الخرق ـ إذ أن كل اضطراب يحدث في المغرب ، ينعكس بصورة حادة على جبهة الصراع في الأندلس . وهو الأمر الذي تبرزه بصورة واضحة مقولات لسان الدين الخطيب (فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقد ، ساءنا واقعه . . وسألنا أن يتدارك الخرق راقعُه) .

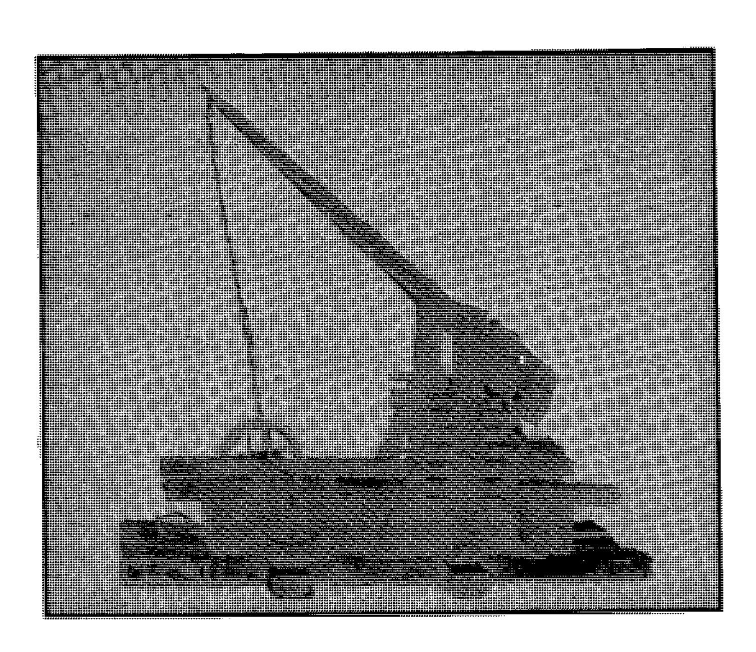
خامساً : حشد كل الطاقات لمجابهة العدو المشترك . إذ أن الانصراف لكل صراع جانبي ، عظم أو صغر ، من شأنه إضعاف جبهة الصراع المسلح في الاندلس (. . . لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا ، وتفرغ العدو الى ضرنا . . . فكيف إذا وقعت الفتنة . . . وإن كان لسوانا لفظها فلنا معناها . . فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها الخ . .)

سادساً : التأكيد على نقطة هامة ، وهي أن استصراخ الأندلسيين لحمية إخوانهم مجاهدي المسلمين في المغرب ، لم يكن بهدف تحميلهم أعباء الجهاد في سبيل الله ، والقاء المسؤولية عليهم بكاملها . وإنما (نحن - الاندلسيون - في الجهاد يد أمام يدكم) وكل ما هو مطلوب من مجاهدي المغرب العربي - الاسلامي تقديم الدعم (حتى تقضي منه باعانتكم الديون) .

سابعاً : التأكيد أيضاً على ضرورة تنسيق التعاون في إطار المسؤولية المشتركة مع التعهد والالتزام بتنفيذ ما يطلبه سلطان المغرب « نستنصر من رأيكم ، . . . مقصدنا تبع لمقصدكم . . . وتصرفنا على حد إشارتكم . . . وعزمنا إلى منتهى مرضاتكم » .

يظهر من ذلك ، أن قضية العصبية (العربية والبربرية) إنما كانت من القضايا التي أمكن تجاوزها والقضاء على ظواهرها أحياناً ، وتركها لتأخذ كل أبعادها المدمرة في أحيان أخرى . وقد كانت تلك العصبية الجاهلية متأثرة بمجموعة من العوامل ، أولها : تمزق القدرة العربية الاسلامية سواء بسبب ضعفها في مجابهة العدوان الخارجي ، أو بسبب ضعف الادارة العربية الاسلامية في الاندلس ، وإنصرافها إلى صراعاتها الداخلية ، أو بسبب ظهور قوة اسلامية - بربرية - على درجة كافية من القدرة - كالمرابطين - . وقد جاء ضعف المسلمين من عرب وبربر ، بنتيجة الاستنزاف في الحروب الخارجية والداخلية ، إلى إدراك حقيقة باتت من أسس السياسة الاستراتيجية الاسلامية - في

المغرب والاندلس ، وهي أن الهجمة الصليبية هي أكبر في قدرتها واتساعها من مسلمي البلدين ، الأمر الذي دفع الحكام إلى تجاوز عصبيات الجاهلية ومجابهة الخطر المشترك بجهد مشترك . وقد كان ذلك التطور عاملاً حاسماً في تحديد أسس التعاون على قواعد ثابتة ، يمكن اعتبارها تجربة تاريخية متقدمة في مجال تنسيق التعاون بين الدول الاسلامية .



١ ـ المعتمد والسياسة الاستراتيجية

كان المعتمد رائداً في مجال التعاون الاستراتيجي بين اندلس المسلمين والمغرب العربي الاسلامي . وقد حدثت موقعة (الزلاقة) سنة ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ . وسقطت غرناطة في قبضة الصليبيين سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م . وبين التاريخين زهاء أربعمائة سنة ، كان الصراع المرير خلالها مستمراً ، وكان النصر فيها نوباً . وتبلورت عبر هذه الحرب الطويلة الأمد أسس التعاون بين الاندلس ـ والمغرب ، فكان المعتمد هو رائد هذا التعاون ، وهو ضحيته في الوقت ذاته . وعند هذه النقطة تبرز مجموعة من المعطيات المتعلقة بذلك التعاون ، سواء في مفهومه ، أو في تطبيقه ـ أسلوبه ـ أو في نتائجه .

لقد كان الهدف من التعاون ، على ما هو واضح تماماً ، دعم القدرة الذاتية للاندلس الاسلامية ، وكانت كيانات (ملوك الطوائف) تتصارع فيما بينها مفسحة بذلك المجال للتدخل الخارجي من جهة ، ومساعدة قوى ذلك العدوان الخارجي على بلوغ أهدافه ، وكان من نتيجة ذلك ظهور جنوح نحو ازالة تلك

الممالك كلها ، الأمر الذي مارسه (بنو عباد) ذاتهم ، بهدف توحيد القيادة السياسية وتوحيد إدارة الحرب . ولقد أدرك المعتمد بصادق احساسه ، وسلامة تفكيره ، وحسن تقديره للموقف بأن ميزان القوى لن يكون في صالح المسلمين الاندلسيين حتى لو أمكن له توحيد كافة القوى الاندلسية ، الأمر الذي دفعه للاستعانة بالمرابطين . وإذن فقد كان المطلوب هو ضمان الظروف الموضوعية من أجل تحقيق التوازن الاستراتيجي لا من أجل خوض معركة واحدة فقط ، وإنما من أجل متطلبات حرب طويلة الأمد . ولعل هذا السبب بالذات هو الذي حرم المعتمد من اتخاذ الاجراءات الحاسمة ضد يوسف بن تاشفين وقوات المرابطين فور الانتهاء من معركة الزلاقة ، حتى لا تمتد أيديهم ولا تتطلع أبصارهم إلى اندلس المسلمين . وهذا أيضاً ما أكده رفض المعتمد الأخذ بنصحية من نصحوه بـإلزام يوسف بن تاشفين بمواثيق تحرمه من العدوان على الممالك الأندلسية .

لقد كان المعتمد في تحركه السياسي يعتمد على عامل بناء الثقة بينه وبين ابن تاشفين قدر اعتماده على قدرة ابن تاشفين في تقدير خطورة الموقف على النحو الذي كان يراه . غير أن تجربة (ابن عباد) ما لبثت أن أكدت بأنه من المحال إقامة العلاقات بين الكيانات المختلفة على (أساس الثقة وحدها) أو (حسن النوايا) . إذ إن هذه العوامل ، مع ضرورة توافرها قبل كل شيء فإنه لا بد أيضاً من التعرض لأسس التعاون التي تحقق الهدف(وهو دعم القدرة الذاتية) وتتعاظم أهمية ذلك عند وضع قضية (تنظيم التعاون) في إطار يضمن توافر شروط اخرى وهي

الحاجة لأن يكون تنظيم التعاون هذا (مستمراً ، ومتطوراً) حتى يمكن له مجابهة المستجدات الطارئة .

إن ضرورة إقامة بنيان ضخم على أنقاض جزئيات أبنية مختلفة يتطلب بالضرورة ضم كل تلك الجزئيات والمحافظة عليها وعدم إهمالها ، إلا إذا توافر الوقت الكافي والمواد الأساسية الكافية للبناء من أجل إقامة بنيان جديد تماماً لا يحمل من خصائص البنيان السابق وصفاته شيئاً . فهل كان ذلك متوافراً ليوسف بن تاشفين ؟ وما هو شكل البناء الجديد الذي كان يريد ؟ وللاجابة على هذين السؤالين لا بد من القول :

أولاً : إن ظروف الصراع مع الفرنج لم تترك فسحة من الوقت لإقامة كيانات جديدة ومستقرة كما أن عامل الوقت والاستقرار لم يكن مضموناً حتى (لابن تاشفين) في المغرب العربي ـ الاسلامي بدلالة ظهور اضطرابات مستمرة انتهت بزوال حكم المرابطين وقيام حكم الموحدين .

ثانياً : لقد كان من المحال على (ابن تاشفين) إقامة كيان له خصائص مميزة عن المجتمع العربي ـ الاسلامي . وصحيح أن المجتمع الاندلسي قد عاش في ترف الحضارة ، غير أنه من الصحيح أيضاً أن هذا المجتمع قد حافظ على خصائصه العربية بقدر ما حافظ على التزامه بتطبيق الشريعة الاسلامية وإقامة حدودها . وهل هناك برهان أوضح من موقف المعتمد ، الذي عاش أرفع مستويات حياة الترف . واحتفظ بالرغم من ذلك بكل فضائل الإنسان العربي المسلم فأطلق مقولته المشهورة ـ الخالدة ـ

(رعي الإبل خير من رعي الخنازير) . وإذن ، فإن المجتمع الذي كان ينشده (ابن تاشفين) لم يكن يتطلب منه أكثر من تصحيح بعض الانحرافات ، وكان ذلك بمقدوره لو أمكن له اتباع السياسة المناسبة .

ثالثاً : وبما أن الهدف من تنسيق التعاون هو دعم القدرة الذاتية ، وبما أن الاندلس هي التي كانت أحوج لدعم تلك القدرة ، فقد كان من الضروري أن يضم البناء الذي اعتزم (ابن تاشفين) إقامته كافة الجزئيات المتوافرة في الاندلس . وبكلمة أكثر وضوحاً ، فقد كان من المفروض استخدام القدرة (المعنوية والمادية) المتوافرة لدى ابن تاشفين من أجل دفع كافة ممالك الطوائف لانتهاج سياسة واحدة تجاه نصارى الشمال ، على النحو الذي ظهر في (الزلاقة) . وعدم تدمير تلك الممالك من أجل اكتساب (قوة مؤقتة) تترك أثاراً سلبية على مستقبل العلاقات ، وعلى محصلة الصراع ، قد تزيد في خطورتها وفي أهميتها على ما تم اكتسابه من قوة مؤقتة . **يمكن الانتقال بعد ذلك إلى معالجة النقطة الثانية ، وهي الأساليب التي تم اتباعها لتطبيق أسس التعاون ، من أجل توحيد القيادتين السياسية والعسكرية .**

لقد حصل (ابن تاشفين) على (فتاوى) من قضاة المسلمين وفقهائهم بجواز خلع (ملوك الطوائف) المتعاونين مع (أعداء الدين) أو (المتخلفين عن الجهاد) ولم يكن المعتمد من المتعـاونين مع أعداء الدين ، كما لم يكن متخلفاً عن الجهاد في سبيل الله . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فإن عملية القضاء على كيانات ملوك الطوائف مرتبطة بشرطين أساسيين هما : زيادة

القدرة الذاتية ودعمها ، وتوحيد القيادات : فهل رفض المعتمد وملوك الطوائف تقديم الدعم اللازم لزيادة القدرة الذاتية ؟ وإذا حدث مثل ذلك فهل كان لزاماً تدمير قدراتهم الذاتية للوصول إلى توحيد القيادة ؟ الأمر الواضح هو أن (ابن تاشفين) ترك قوة لسد الثغور ، والاضطلاع بواجب الجهاد - إلى جانب الأندلسيين - وكان من الأفضل وضع (ملوك الطوائف) أمام مسؤولياتهم ، والتخلي عنهم إذا ما رفضوا دعم المجهود الحربي المشترك ، واتباع تلك الأساليب التي كان يمارسها المعتمد بدهاء في الإفادة من الظروف المناسبة لتوحيد الجهود المشتركة - وبكلمة أوضح ، الفصل بين الطبقة الحاكمة (عند انحرافها) وطبقة الشعب ، بحيث لا يحتمل الشعب قسوة الضربة الموجهة إلى (المنحرفين من الحكام) . أما ما حدث على أيدي المرابطين ، فقد كان يناقض ذلك تماماً ، إذ اجتاحت قوات المرابطين المدن الأندلسية بطرائف لا تختلف عن طرائق الغزاة (الفرنج) إن لم تتجاوزها في عنفها وقسوتها ، الأمر الذي ترك جراحات عميقة في (الجسم الأندلسي الإسلامي) وكان لهذه الجراحات ذكرياتها الأليمة ونتائجها السلبية على مستقبل التعاون بين الأندلسيين والمرابطين . ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى عند تنسيق التعاون لتحديد أسس هذا التعاون حتى لا تأتي طرائق التنفيذ وأساليبه مغايرة (أو حتى مناقضة) للحافز الأساسي الكامن وراء هذا التعاون . وهذا ما يؤكد الحقيقة الثابتة وهي أن عملية (تنسيق التعاون) ليست مجرد نزوة طارئة أو اندفاعة عاطفية أو إقامة بناء على أساس من (حسن النوايا) .

تقود النتيجة السابقة البحث نحو المبدأ الحاسم وهو (الهدف من تنظيم التعاون وتنسيق الجهد المشترك). لقد كان الهدف من استنصار (المعتمد) بابن تاشفين هو الدفاع عن المسلمين ، والتصدي للعدوان الصليبي . فكان لزاماً أن يتم تنسيق التعاون في إطار (رفع راية الإسلام والمسلمين) وقد استجاب (ابن تاشفين) لنداء المعتمد على هذا الأساس ، وإذن فقد كان من المفروض أن ينعم المسلمون في ظل هذا التعاون بمزيد من الأمن الداخلي والخارجي ، غير أن أسلوب القضاء على (ملوك الطوائف) وتدمير كيانهم قد آذى المسلمين وأضرهم وأباح أموالهم ومحرماتهم ، فكان ذلك أخطر على المسلمين من أعدائهم . وهنا لا بد الإشارة الى نقطتين حاسمتين في الموضوع :

أولاهما: ظهرت عند الاستيلاء على طليطلة ، فقد تمكن الفرنج الصليبيون من شراء بعض ذوي النفوس الضعيفة لإقناع جماهير المسلمين بقبول حكم الفرنج لهم ، والخضوع لحكمهم . كما عملوا ـ أي الفرنج ـ على اتِّباع سياسة مرنة في تعاملهم مع المسلمين ، إذ كانوا لا يزالون في مرحلة بعيدة عن القضاء على الوجود الإسلامي ـ العربي ـ في الأندلس ، ولهذا كان من مصلحتهم المرحلية معاملة المسلمين الذين ينضمون اليهم بالرفق واللين لإضعاف جبهة المسلمين ، وإظهار التناقض بين (رأفة النصارى) و (قسوة المسلمين) وقد حفظ الأدب الأندلسي شواهد كثيرة تؤكد هذه الحقيقة .

وثانيتهما: أن (ابن تاشفين) قد طلب الى ملوك الطوائف

في بداية أمره ، رفع المكوس والضرائب عن جماهير المسلمين . وقد انصاع هؤلاء لطلبه ، حتى إذا عاد إلى المغرب ، رجع ملوك الطوائف إلى سابق عهدهم . الأمر الذي أثار حفيظة (ابن تاشفين) من جهة ، بقدر ما أثار (ملوك الطوائف) أيضاً ، إذ اعتبر هؤلاء أن (ابن تاشفين) يطمع في التدخل بشؤونهم الداخلية .

تظهر عند هذه النتيجة نقطة في غاية الأهمية ، إذ من واجب حكام المسلمين والمسؤولين عنهم ، رعاية شؤونهم ، والاهتمام بمصالحهم ، فكيف يمكن التوفيق بين قضية تنظيم التعاون على مستوى الحكام ؟ وبين قضية رعاية مصالح جماهير المسلمين ؟ .

القضية ليست صعبة ، أو مستعصية على الحل ، فالتعاون مع الحكام يتم على أسس رعاية مصالح المسلمين ، ويمكن الحد من هذا التعاون عند عدم استجابة بعض الحكام للمبدأ العام في رعاية شؤون الإسلام والمسلمين ، ولقد كانت الأندلس وحكامها هم الأكثر حاجة لهذا التعاون ، وإذن فقد كانوا مرغمين في النهاية الى قبول كل شرط من شأنه تطوير عملية تنسيق التعاون وتطبيق أحكام الشرع في إقامة العلاقات بين الحكام والمحكومين . تلك هي النقطة التي تجاوزها (ابن تاشفين) بقدر ما تجاوزها ملوك الطوائف أيضاً في حميا (عصبتهم الجاهلية) فكان من نتيجة ذلك قيام الصراعات على أنقاض (تنظيم التعاون) . والغريب في الأمر ، أن حكام

المرابطين ، لم يتمكنوا عندما تسلموا حكم البلاد الأندلسية من تحقيق العدالة التي كانوا ينشدونها ، بدلالة تعاظم المقاومات وتزايد الاضطرابات بين الأندلسيين والمرابطين ، ولو أن تلك الاضطرابات لم تأخذ شكلاً حاداً في معظم الأحيان بسبب توافر الوعي ـ على مستوى المجاهدين في سبيل الله ـ بالخطرالذي يمثله العدوان الصليبي . والمهم في الأمر هو أن الهدف من تنظيم التعاون لم يتحقق ، لا على المدى القريب ، ولا على المدى البعيد ، وصحيح أن انتصار الزلاقة قد أبعد مؤقتاً التهديد الخارجي ، أو أضعف من حدته ، غير أن توظيف الانتصار الخارجي لفرض تغيير في تنظيم الكيانات الداخلية ، قد دمر الهدف الأساسي من تنظيم التعاون ، وهو (ضمان أمن الإنسان العربي المسلم في أرضه ووطنه) .

لقد ظهرت في المشرق الإسلامي ، أثناء الحروب الصليبية ، أحداث مماثلة ، فقد عمل (صلاح الدين الأيوبي) على إزالة الحكم الفاطمي في مصر ، كما عمل على إزالة كافة الإمارات المستقلة ، وعين إخوته وأقاربه لشغل مناصب الحكم ، وإذا كان العنصر (البربري) في الأندلس قد اضطلع بهذا الدور ، فإن العنصر (الكردي) قد اضطلع بالدور ذاته في بلاد الشام . وحدث في المشرق الإسلامي ما سبق حدوثه في أندلس المسلمين . وإذا كانت (الزلاقة) هي ثمرة الأندلسيين مع (مسلمي المغرب) فقد كانت (حطين) هي ثمرة تعاون مسلمي المشرق الإسلامي مع (مسلمي الأكراد) . غير أن هناك مجموعة من الفوارق ، أبرزها (الاختلاف في أسلوب

توحيد إدارة الحكم) . وإذا ما تمكن صلاح الدين من القضاء على الفاطميين ، فذلك بدعم من جماهير المسلمين الذين (أرغموا على التشيع) وكذلك بسبب تعاون الفاطميين مع الصليبيين ـ أعداء الدين ـ بالإضافة إلى ذلك الانحراف الذي مارسه حكام الفاطميين في تطبيق الشريعة الإسلامية . ومن هنا فقد اكتسبت حركة (صلاح الدين) انصاراً أقوياء لها في وسط جماهير (مسلمي المشرق) في حين عجزت قيادات المرابطين عن بلوغ هذا الهدف في أندلس المسلمين .

وتثير هذه النقطة قضية هامة طالما مزقت العالم العربي - الإسلامي ، وهي قضية (وحدة القيادة) أو (وحدة الحكم) فالهدف الأساسي هو (رفع راية الإسلام) وتأمين العزة والسيادة للإنسان المسلم (والعزة لله ورسوله والمسلمين) . ودعم العالم الإسلامي حتي يتمكن من مجابهة أعدائه الخارجيين في حين أن التحول عن هذا الهدف يجعل من قضية (وحدة القيادة) هدفاً في حد ذاته ، الأمر الذي يعني إفراغ الحكم من مضمونه الإسلامي ، فقضية (وحدة القيادة) إذن مجرد وسيلة وليست غاية في حد ذاتها . وعندما يحدث الانحراف الثقيل ، وتصبح (وحدة القيادة) هي الهدف ، يفقد المسلمون ما ينشدونه من (وحدة القيادة) .

لقد مارس (صلاح الدين الأيوبي) مختلف الأساليب لتوحيد القيادة ، غير أنه لم يتنكر للسيادة المعنوية التي تمثلها وحدة القيادة في شخص الخليفة العباسي . كما أنه حرص باستمرار على بذل كل جهد مستطاع لرفع راية الجهاد في سبيل

الله عالياً ، وتأمين الدفاع عن حدود المسلمين وحماية ثغورهم .
وسار (ابن تاشفين) على المنهج ذاته قبل ذلك بأكثر من مائة سنة ، غير أن حظه من التوفيق والنجاح لم يكن مماثلاً لحظّ صلاح الدين . ولا ريب أن (ابن تاشفين) كان مخلصاً في نواياه كمثل إخلاص صلاح الدين ، أو ربما أكثر ، غير أن الاختلاف في الأساليب قد عزز مكانة صلاح الدين بقدر أكبر .
وهناك نقطة لا بد من الإشارة اليها أيضاً ، فلقد كان هناك اختلاف في التكوين السكاني - الديموغرافي - في المشرق الإسلامي عن الأندلس الإسلامية ، وكانت هناك أيضاً لعبة القدر إذ لم يقدر ليوسف بن تاشفين أن يعمر طويلاً حتى يصحح مسار تجربته التاريخية، في حين ساعد الزمن السلطان صلاح الدين على بلوغ أهدافه كاملة . والغريب في الأمر أن صلاح الدين قد أقام وحدة قيادته على أنقاض (الزنكيين) الذين اشتهروا بـإخـلاصهم للدين وحمـاستهم للدفـاع عن الإســلام ، والمسلمين . وكذلك فعل (ابن تاشفين) ضد (بني عباد) . غير أنه ما من أحد يلوم صلاح الدين على موقفه من (الزنكيين) ذلك لأن يد القدر هي التي تدخلت فأزالت عن طريقه (نور الدين زنكي) في حين أن (ابن تاشفين) كان هو يد القدر التي أزالت (بني عباد) . فارتبطت عملية القضاء على الممالك الأندلسية باسم (المرابطين) بينما لم يتحقق مثل هذا الارتباط بصورته القاتمة في عملية توحيد المسلمين على أيدي (صلاح الدين الأيوبي) .

لقد كانت حركة التعاون (الأندلسي - المغربي) هي بداية

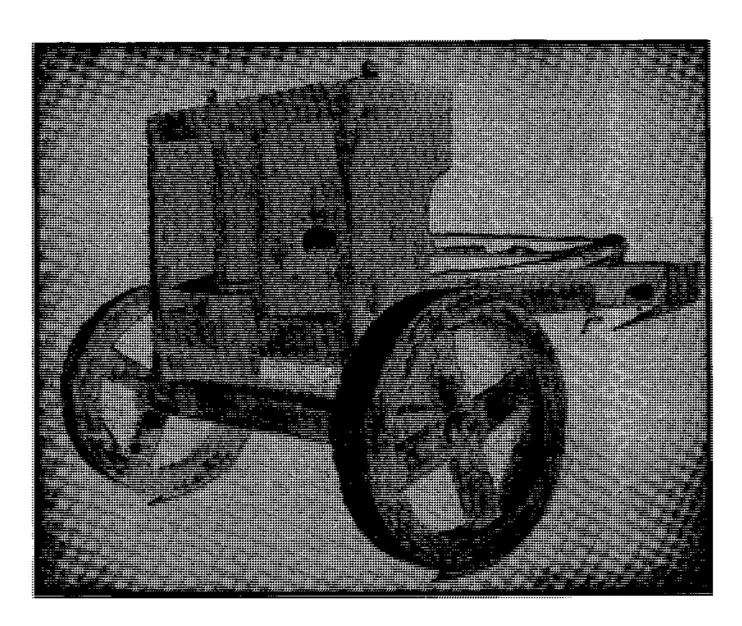
التحول في علاقات العالم العربي - الإسلامي وفي علاقات هذا العالم مع العالم الغربي . إذ كان سقوط طليطلة هو نقطة الانطلاق في الحرب الصليبية الشاملة ، مع كل ما رافقها وما تبعها من تحولات . ومن هنا فقد اعتبرت عملية إزالة ملوك الطوائف على أيدي المرابطين ، من قبل بعض الباحثين العنصريين الغربيين على أنها انتصار للعرق (البربري) على العنصر العربي ، وقد تناسى هؤلاء في غمرة أحقادهم حقيقتين أساسيتين : أولاهما أن الإسلام قد ساوى بين الشعوب الإسلامية ، ولا فضل لأحد إلا بما يقدمه من جهد لرفع راية الإسلام والجهاد في سبيل الله ، وقد اندفعت الشعوب الإسلامية لمجابهة العدوان الصليبي فكان لها شرف رفع راية الجهاد ودعم قوة المسلمين والذود عن حياضهم . والحقيقة الثانية هي أن (المرابطين) قد اصطدموا بالبربر المسلمين قبل اصطدامهم بأية قوة أخرى ، ثم أزالوا الكيانات العربية والبربرية على حد سواء ، فكانت حركة المرابطين حركة إصلاحية دينية هدفها الأساسي تطهير السنة الشريفة وإزالة البدع والانحرافات مما علق بها . وقد يكون من المحال في إطار هذا المفهوم اعتبار حركة (المرابطين) على أنها حركة (عنصرية) أو (عرقية) . ولا يمكن هنا أيضاً تجاهل الدور الكبير الذي اضطلع به المرابطون في نشر الإسلام بين الشعوب السودانية الموغلة في الصحراء الإفريقية وهذا ما يؤكد دور حركة المرابطين باعتبارها حركة إصلاحية دينية هدفها رفع راية الجهاد في سبيل الله ، ونشر الإسلام ، ودعم قوته . وانطلاقاً من هذا الواقع ، فإن ما قام به

المرابطون في الأندلس ليس أكثر من انحراف ناجم عن تقدير خاطىء لطبيعة الصراع مع الفرنج وحجم هذا الصراع وأبعاده .في حين كان المعتمد خاصة ، والأندلسيون عامة ، أكثر إدراكاً لهذا الواقع بحكم معايشتهم له ومعـاناتهم لظروفه ،فكان لزاماً أن يتم تنسيق التعاون بالاعتماد على الأندلسيين ودعم مواقفهم مع تجنب فرض مواقف مستجدة قد تخطىء الهدف أو تصيبه .

وبكلمة أكثر وضوحاً ، إن عملية تنسيق التعاون على مستوى السياسة ـ الاستراتيجية ، هي من العمليات المعقدة ، ولئن كان حافز (العاطفة الدينية ـ الإسلامية) هو الحافز الأقوى في عملية تنسيق التعاون ، إلا أنه من غير الطبيعي في الوقت ذاته تجاهل (المصلحة الخاصة والعامة) فالمجتمع الإسلامي ، مثله مثل كل مجتمع ، يقوم على مجموعات من الأفراد والعصبيات (التكتـلات) وبقدر ما يتوافر ضمان المصلحة لهذه المجموعات بقدر ما يرتفع رصيد (تنسيق التعاون) وتتعاظم أهميته . وهل هنـاك تفـسيـر آخـر لكلمة (الأمن) غير (المصلحة) ؟ سواء كان هذا الأمن غذائياً أو حياتياً ؟ .

من هنا كان لا بد من القول بأنه من المحال نقل المجاهدين من عدوة المغرب الى عدوة الأندلس ، وتحميلهم أعباء الجهاد في سبيل الله ، ودفعهم لاحتمال كره القتال ، من غير التفكير مسبقاً بضرورة منحهم امتيازات تعادل أو تزيد على ما يحصل عليه الأندلسيون سواء كانت هذه الامتيازات مادية أو معنوية ، وصحيح أن شرف الجهاد ، وشرف الشهادة ، يرتفع قدراً وسمواً

على كل متاع الدنيا - في المجتمع الإسلامي - غير أن تجاهل هذا المتاع من الأمور غير المقبولة ، وإلا لما ترك الإسلام للمجاهدين نصيبهم الأكبر من الغنائم (الأربعة أخماس) . وبالمقابل فإنه من غير المقبول ، أو المعقول ، تجريد الأندلسيين من ممالكهم وممتلكاتهم بحجة الدفاع عنهم ، ككل ، إذ أن هذا الكل هو محصلة مجموعة الأفراد الذين لا بد وأن ينال اضطهاد بعضهم إلى تأثر بعضهم الآخر ، فكيف إذا اتسع نطاق هذا الاضطهاد حدود البعض ؟



٢ ـ الزلاقة وإدارة الحرب

لقد خاضت قوات المسلمين معركة الزلاقة بتنظيمين مميزين ، تنظيم قوات المرابطين بقيادة (يوسف بن تاشفين) وتنظيم قوات الأندلسيين بقيادة (المعتمد بن عباد) وكان لكل من التنظيمين معسكره المعزول عن المعسكر الآخر ، ولقد حاول (ألفونسو السادس) الإفادة من ذلك لتوجيه ضربة بكل ثقل قواته ضد معسكر الأندلسيين حتى إذا ما أمكن له تدمير المسلمين الذين يقودهم المعتمد ، أمكن له القضاء بسهولة ويسر على قوات (المرابطين) الذين يجهلون طبيعة البلاد بقدر جهلهم طبيعة خصمهم . غير أن محاولة (ألفونسو) لم تبلغ غايتها ، وهنا قد يكون من المناسب التوقف عند أبرز معالم المعركة .

أولاً : خاضت قوات المسلمين معركتها متساندة تحت قيادتين مستقلتين لم تعملان أبداً على تنسيق التعاون المسبق ، وتركتا أمر مجابهة المواقف لتطورات المعركة ذاتها .

ثانياً : لقد تركت قوات المسلمين المبادأة بيد قوات الفرنج التي يقودها (ألفونسو) . وقد كان تحديد موعد المعركة من قبل ألفونسو ذاته ، وبذلك لم يكن هناك مجال للمباغتة لولا عملية الغدر (الخداع) التي لجأ إليها ألفونسو في محاولته للإفادة من (عامل المباغتة) وإحراز التفوق على قوات المسلمين .

ثالثاً : لم تحاول قوات المسلمين ـ على خلاف عادتها في الحروب ـ استثمار النصر على مستوى العمليات لإحراز نصر استراتيجي . وذلك بأن تركت لفلول العدو فرصة إعادة التجمع ، كما توقفت عن تطوير العمليات للوصول إلى طليطلة وانتزاعها من قبضة الفرنج (الصليبيين) . مع العلم أن سقوط طليطلة في قبضة النصارى كان هو المحرض الأساسي للمسلمين من أجل خوض (موقعة الـزلاقـة) .

رابعاً : كانت قوات المرابطين تجهل كل شيء عن طبيعة مسرح العمليات ، وعن العدو ، ولهذا فقد قام المعتمد بن عباد بتنظيم كافة الاجراءات ، واتخاذ كافة التدابير التي يمكن أن يطلق عليها اسم (تدابير أمن القتال) مثل تنظيم الحراسة ، ومراقبة التحركات.، وأشرف بنفسه على كل ذلك (بحيث كان كل مرابطي يبتعد لقضاء حاجة ما ، يجد أمامه المعتمد ذاته) .

إن استعراض مسيرة الأعمال في مراحل التحضير للمعركة وأثنائها ، يؤكد يقيناً أن ظروف المعركة كانت لصالح قوات (ألفونسو) بأكثر مما كانت لمصلحة قوات المسلمين ، فبينما كانت قيادة ألفونسو تنفرد بميزات المبادأة ، والمباغتة ، وأمن

العمل ، والاختيار المناسب لمسرح العمليات (ميدان القتال) علاوة على وحدة القيادة ، كانت قوات المسلمين محرومة من ذلك كله . وإذن ، فكيف استطاعت قوات المسلمين إحراز النصر ، وانتزاعه من قبضة الأعداء ، بعد أن مارست هذه العوامل كلها تأثيرها خلال المرحلة الأولى من الاشتباك ، وكادت تؤدي إلى إنزال كارثة حقيقية بقوات الأندلسيين في معسكر ابن عباد ؟ .

يعود العامل الأول في انتصار المسلمين إلى معرفة (ابن عباد) لعدوه معرفة عميقة ، ولقد أدرك المعتمد منذ اللحظة الأولى أن ألفونسو يعتمد على خطة خداعية في حربه ضد قوات المسلمين ، وقد أمكن له بفضل معرفته هذه كشف خداع (ألفونسو) عند تحديده ليوم المعركة (في يوم السبت الذي لا هو عيد النصارى ، ولا هو عيد للمسلمين) وأدرك أن الموعد الأكثر احتمالاً للقتال هو يوم الجمعة وقد صح ما توقعه ابن عباد . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان للمعتمد شبكة استطلاع محكمة ، وعناصر جاسوسية أمينة ، أمكن لها التوغل حتى قلب معسكر (ألفونسو) والوصول إلى مقر قيادته ـ خيمته ـ وقد استطاعت عناصر الاستطلاع والجاسوسية إنذار (المعتمد) في وقت مناسب وتمكن (ابن عباد) من إنذار (ابن تاشفين) في اللحظة الحرجة . وصحيح أن (آلفونسو) قد استطاع مباغتة المسلمين في معسكر (المعتمد) غير أن هذه المباغتة كانت جزئية وغير كاملة ، وقد نجحت هذه المباغتة في إعاقة المعتمد

عن تنظيم قواته لدخول المعركة ، غير أنها لم تنجح في إعاقته عن استنفار قواته وتحذيرها ، وبذلك نجحت هذه القوات في استقبال الصدمة الأولى للهجوم ، ومجابهتها ، ولو كان الأمر على خلاف ذلك ، لنجح ألفونسو وقواته في إبادة مسلمي الأندلس إبادة بشعة وهم آمنون في خيامهم . وكذلك الأمر بالنسبة لمعسكر (ابن تاشفين) الذي كان يقع على بعد مسافة كافية من معسكر المعتمد ، مما كان يطرح احتمال انتهاء الاشتباك في معسكر (المعتمد) قبل أن يشعر المسلمون في معسكر (ابن تاشفين) بالمعركة الضارية التي كانت تدور تحت جنح الظلام في المعسكر المجاور لهم . ونظراً لوجود المقاومة الضارية التي قادها (المعتمد) فقد تمكن (ابن تاشفين) من تنظيم قواته ، والدخول بها في المعركة وفق طريقته الخاصة ، وهذا ما يعزو سبب تأخر (ابن تاشفين) في دخول المعركة ، بينما كانت قوات المعتمد تجابه محنة حقيقية . ويظهر ذلك أن الفضل الأول في تحول المعركة لمصلحة المسلمين ، إنما يعود (للمعتمد) شخصياً ، فهو الذي نظم شبكة الاستطلاع والجاسوسية ، وهو الذي نظم (أمن القوات) وهو الذي قاد المعركة في أصعب مراحلها ، وأكثرها حرجاً .

يأتي بعد ذلك دور (يوسف بن تاشفين) الذي نظم قواته على عجل ، وقام بحركة (تقرب غير مباشر) إذ أفاد من فراغ معسكر (ألفونسو) فقاد قواته ، وقام باحتلال هذاالمعسكر ، الأمر الذي أرغم قوات الأعداء على التخفيف من ضغطها ضد المعتمد ، والانتقال بثقل قواتها لمجابهة قوات ابن تاشفين ،

الأمر الذي أتاح للمعتمد فرصة إعادة قواته ، وزجها بطريقة متماسكة ، مع جمع قوات (الفارِّين - أو الهاربين) الذين صدمتهم ثقل الهجمة الأولى . ووقعت بذلك قوات (ألفونسو) بين مطرقة (ابن تاشفين) وسندان (المعتمد) وباتت مرغمة على الرقص على أنغام الحرب التي يعزفها جند المسلمين .

لقد أدت حركة (ابن تاشفين) الى انتزاع المبادأة من قبضة (ألفونسو) فخسرت قوات النصارى حتى الآن ميزات (المباغتة) و (المبادأة) و (حرية العمل العسكري) وفقدت بذلك العناصر التي كانت تضمن لها نوعاً من التفوق المادي والمعنوي .

لقد ذكرنا أن (يوسف بن تاشفين) قد نقل إلى الأندلس أعداداً كبيرة من الجمال (ضاقت بهم أرض الجزيرة الخضراء ، وملأ رغاء تلك الجمال رحاب السماء) . ولم يتعرض المؤرخون المسلمون في عرضهم لمسيرة المعركة إلى دور هذه الجمال في المعركة . فهل تم استخدامها فعلاً أم لا ؟ المهم في الأمر هو أن دخول قوات (ابن تاشفين) في المعركة قد ترافق بتظاهرة نفسية (قرع الطبول ، وعزف المزامير) الأمر الذي كان له تأثير إيجابي على قوات المسلمين ، وتأثير سلبي على قوات الأعداء . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد أشارت المصادر العربية إلى أن (ابن تاشفين) أمر أربعة آلاف (من الحشم السودانيين) بالترجل عن خيولهم ، والتعامل مع قوات الأعداء (الفرسان) بالرماح والمزاريق ، الأمر الذي يؤكد اعتماد (ألفونسو) على قوة الفرسان الثقيلة التي تتقدم كالجدار

الصلب لتسحق كل ما يجابهها . وقد استطاع مشاة المسلمين (الحشم السودانيين) تمزيق هذا الجدار المتماسك بضرباتهم المحكمة (سهامهم) الأمر الذي أفقد قوات النصارى ميزة (استثمار القوة الضاربة الهجومية) .

أظهر القادة حتى الآن ما هو مطلوب منهم لإدارة الحرب بصورة ناجحة ، وبقي حسم الموقف ، وقد أدرك المعتمد أن هذا الحسم مرتبط (بثقل الضربة الهجومية) التي يمكن توجيهها لقوات العدو ، فقام بضم قواته الى قوات (ابن تاشفين) . وقام الجميع بهجوم لم تتمكن قوات ألفونسو من احتمال ثقل وطأته ، فتمزقت ، ولحق بها الدمار ، ولاذ (الملك ألفونسو) بالفرار ومعه فلول لا تزيد على خمسمائة مقاتل، ما من أحد منهم الا مصاب بجراح(مكلوم)وانتظروا الليل على تل مجاور حيث أمكن لهم التسلل والعودة الى (بلادهم) . وكان تنسيق التعاون بين قوتي المسلمين هو العامل الحاسم الذي أكسب الضربة قوتها . لقد خاضت قوات النصارى التي قادها (ألفونسو السادس) معركة الزلاقة بتصميم وعناد كبيرين ، الأمر الذي يبرز واضحاً من خلال الصراع المرير الذي خاضته هذه القوات في محاولاتها لانتزاع النصر أو الموت ، وهو ما تؤكده وفرة الضحايا ويبرز ذلك قوة المحرض الديني الذي استطاع الكهنة والقسس إحداثه في نفوس المقاتلين ، كما يبرز الروح المعنوية العالية التي توافرت لهؤلاء المقاتلين والتي عززها ـ دونما ريب ـ استيلاؤهم على طليطلة في السنة السابقة . ومن هنا تظهر قيمة الفضائل الحربية والروح المعنوية التي كان عليها

مجاهدو المسلمين (من الأندلسيين والمرابطين) والتي مكنتهم من معادلة التفوق المادي والمعنوي الذي كان متوافراً للعدو ، وانتزاع النصر من قبضته .

لقد خاض المجاهدون المسلمون معركتهم في الزلاقة ، بإيمان ثابت وتصميم راسخ ، على انتزاع النصر . وصحيح أن رواسب الهزيمة في (طليطلة) واستيلاء الكفار عليها قد خلق نوعاً من الإحباط في نفوس المسلمين ، وترك مرارة أليمة لديهم ، إلا أن ذلك شكل في الوقت ذاته حافزاً للانتقام والثأر (غسل العار واستعادة الكرامة) . وفي الوقت ذاته ، فإن اسراع المرابطين لنجدة إخوانهم الأندلسيين قد أسهم إلى حد بعيد في دعم تلك الروح المعنوية ، وإظهار تلك الفضائل الحربية . وإذا كان النصارى قد أخذوا عن المسلمين الاستباق الى إحدى الحسنيين ، فقد كانت العقيدة الإسلامية هي التي أوجدت في الأصل هذا المبدأ ، وكان التزام المسلمين به أحرى ، وأخذهم به ألصق وأجدى . ومن هنا ظهرت قسوة الصراع في (حوار الارادات المتصارعة)وكان النصر إلى جانب الارادة الأكثر تصميماً والأكثر عناداً على طلب إحدى الحسنيين . ونصر الله المسلمين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

استطاع المسلمون في الزلاقة ، تحويل الموقف لمصلحتهم ، وانتزاع النصر من أعدائهم ، بفضل توافر مجموعة من العوامل وتضافرها ، وأولها الكفاءة القيادية العالية للقائدين (المعتمد وابن تاشفين) وثانيهما تطبيق مبادىء الحرب بمهارة ، وثالثهما : الكفاءة العالية والفضائل الحربية والروح المعنوية العالية للمجاهدين في سبيل الله . واذا كان المعتمد قد استطاع

إحباط (المباغتة) بفضل تدابير(الأمن والحيطة) التي اتخذها ، فقد استطاع (ابن تاشفين) انتزاع (المبادأة) من قبضة عدوه (الفونسو) بفضل تقربه غير المباشر ومهاجمته لمعسكر الفرنج .

فإلى من ينسب النصر بعد ذلك ، إذا ما أريد إعطاء قصب السبق في الفضل ؟ هل للمعتمد الذي خطط للمعركة منذ بدايتها ، وحشد لها كل ما تتطلبه من القوى والوسائط ، سواء من داخل الأندلس حيث عمل على استنفار كل القوى المتوافرة ، أو من المغرب حيث عمل على الاستعانة بالمرابطين ؟ أم هل يعود الفضل في ذلك إلى (ابن تاشفين) قائد المرابطين ، الذي عبر بقواته البحر ، واستجاب لداعي الجهاد ، وأقبل بعزيمة صادقة على احتمال كره القتال ؟ أم إلى تلك الحشود الكبرى من المجاهدين في سبيل الله ، الذين تحلوا بفضائل الحرب ، فأقبلوا بحماسة على طلب الحسنيين ، فكان لبعضهم إحداها وكان للآخرين الثانية ، ولم يفضل أحد على أحد إلا بشرف الشهادة ؟

الفضل لله وحده ، والفضل للعقيدة الدينية الاسلامية التي أوجدت مذهباً عسكرياً إسلامياً مميزاً بتكامله وبديع أحكامه . فلولا الإسلام لما طلب (ابن عباد) الدعم من أخيه المسلم ، وفضله على الخضوع لعدوه ، فالمسلم الحقيقي ، يأبى الخضوع لغير المسلم ، ويرفض وصايته ، وقد انطلق المعتمد في تحركه من هذا المبدأ . ولولا الاسلام ، ما تحرك ابن تاشفين إلى الاندلس ، وسعى لنصرة اخوانه على أعدائهم . ولولا الإسلام ، لما تشكلت تلك الفضائل الحربية ، ولما برزت (مبادىء الحرب) بصورتها الواضحة على أيدي العرب

المسلمين . ولما وصل المسلمون أصلاً إلى الاندلس . وإذن فالفضل كل الفضل للاسلام ديناً ، وعقيدة قتالية أو مذهباً عسكرياً .

وقد أكدت التجربة التاريخية أنه ما من مرة توافرت فيها هذه العوامل الثلاثة (١ ـ القيادة المؤمنة المسلمة . ٢ ـ الالتزام بتطبيق العقيدة القتالية الاسلامية . ٣ ـ توافر قوات من المسلمين المجاهدين في سبيل الله) إلا وكان النصر حليفاً للمسلمين .

هنا يخطر السؤال : وإذا توافرت مثل هذه **العوامل** فأدت إلى نصر المسلمين في (الزلاقة) فكيف إذن توقف المسلمون عن تطوير الموقف للعودة بالاندلس على نحو ما كانت عليه في زمن الفتح ـ على أقل تقدير ـ ؟ ولماذا لم تستخدم تلك القوة الهجومية التي توافرت على أرض أندلس المسلمين من أجل حسم الداء واستعادة طليطلة ؟

قد يكون السبب في ذلك قصور في رؤية القادة (المعتمد وابن تاشفين) لأفق المستقبل ؟ . وقد يكون السبب في ذلك عدم توافر ما يكفي من القوى والوسائط لمجابهة حملات صليبية ضخمة ؟ . أو لعل السبب في ذلك ظهور أحداث مباغتة على مسرح المغرب العربي ـ الاسلامي اقتضت عودة (ابن تاشفين) بسرعة إلى المغرب ، حفاظاً على القاعدة الصلبة للمسلمين فيها ؟ أو قد تكون هذه العوامل مجتمعة بالإضافة لعوامل اخرى ـ منها ما قد يكون شخصياً ـ .

مهما كان عليه الموقف ، فليس على الباحث استنباط العوامل من افتراضات تحمل من الشك بقدر ما تحمل من

اليقين ، وليس عليه أيضاً بناء المواقف على نحو ما كان يجب أن تكون عليه تلك المواقف . وبكلمة اخرى فليس عليه محاكمة الحدث التاريخي خارج إطاريه الزمني والمكاني . وكل ما هو مفترض فيه أن يبرز الحقائق كما حفظتها له الوثائق التاريخية مع إيجاد الروابط الثابتة بينها ، واستنباط الدروس المستخلصة منها . ولقد حدثت موقعة الزلاقة ، وفقاً لما سبق شرحها . وظهرت فيها بشكل واضح روابطها وعواملها ونتائجها .

لقد كان أحد مقاييس النصر أو الهزيمة - في معارك الماضي - هو بمقدار ما تتكبده قوات العدو من الخسائر ، ومقارنة ذلك بما تتكبده القوات الصديقة . وعلى هذا المقياس يمكن اعتبار (موقعة الزلاقة) من المواقع الحاسمة في التاريخ الاسلامي ، حيث تم فيها القضاء على جيش كامل من جيوش العدو ،وبقيت الجيوش الاسلامية في حالة سليمة نسبياً . غير أن وضع موقعة الزلاقة في (موقعها التاريخي) يحرم تلك الموقعة من الهالة المحيطة بها ، ويجردها من كثير من قيمتها ، حيث تظهر هناك مجموعة من الأسئلة : فهل استطاعت (الزلاقة) ايقاف المد الذي بدأه النصارى في الشمال ؟ وهل استطاعت شمس الانتصار في الزلاقة أن تكسف ما حققه الفرنج من انتصار في طليطلة قبل ذلك بعام ؟ وهل تمكنت الزلاقة من حرمان العدو من تشكيل جيوش جديدة لتطوير الحرب الصليبية - ضد المسلمين ؟ وهل أسهمت هذه المعركة في دعم القدرة القتالية لاندلس المسلمين بصورة حقيقية ؟ .

٣ ـ الزلاقة ـ وموقعها في التاريخ

كثيراً ما تتناقض وجهات نظر الباحثين والمؤرخين تجاه الأحداث التاريخية وتقويمها ، فكيف الأمر عندما يكون الحدث متعلقاً بصراعات عقائدية (دينية ـ أو ايديولوجية) حيث يحاول كل طرف من الاطراف المتصارعة اعطاء الحدث الذي يشترك في صنعه أهمية خاصة ؟ لقد كانت (موقعة الزلاقة) من وجهة نظر المؤرخين المسلمين حدثاً بارزاً ، غير أنهم لم يحاولوا اعطاء هذا الحدث حجماً يزيد عن حجمه ، فتقويمهم له هو واحد من الانتصارات الكبرى ضد اعداء الدين ، الكفار . بينما يجد فيه النصارى نقطة تحول حاسمة في مسيرة الصراع الصليبي ـ الاسلامي . ويعتمدون في دعم وجهة نظرهم هذه على المجرى الزمني لمسيرة الاحداث . فقد وقعت معركة (ملازكرد ـ مانزيكرت) سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م ، وهي المعركة التي تمكن فيها السلاجقة المسلمون من تدمير قوات أرمينيا التي كانت تشكل قاعدة متقدمة للامبراطورية البيزنطية من أجل العدوان على ثغور المسلمين في المشرق ، ثم جاءت معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ =

١٠٨٦ م لتسهم في ايقاف مد الهجوم الصليبي مؤقتاً على الاندلس ، وأعقب ذلك اعلان الحروب الصليبية رسمياً في اوروبا (سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٥ م) وفي سنة(٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م) استولى الفرنج الصليبيون على بيت المقدس وبدأت الحملة الصليبية الاولى في المشرق .

والأمر الواضح في هذه الاحداث وتسلسلها أن المسلمين قد استطاعوا حتى نهاية القرن الخامس الهجري ـ تقريباً ـ الاحتفاظ بقدرتهم الهجومية على الصليبيين في المشرق والمغرب . وأن مجموعة هذه الاحداث كانت هي المتحولات الحاسمة في مسيرة الصراع . غير أن التوقيت بتاريخ معين واعتباره بداية للتحول يعتبر خطأ ، ولو أنه لا بد من الاعتماد على تاريخ زمني محدد لتسجيل الاحداث . فالصراع بين المسلمين والصليبيين لم يتوقف منذ الأيام الأولى للفتوح الاسلامية . وقد أدى انتزاع المسلمين للسيطرة البحرية ، وفرض وجودهم على البحر الابيض المتوسط ، ثم سيطرتهم على أجزاء كبرى من الجنوب الاوروبي ـ الاندلس وجنوب ايطاليا والجزر الكثيرة في البحر الأبيض المتوسط ، إلى إبعاد الصراع عن ثغور المسلمين ونقله إلى داخل أوروبا ، فتقلص دور (الامبراطورية البيزنطية) وتضاءل دور (الرومان ـ ايطاليا) . غير أن الكنيسة لم تأل جهداً ، أو تدخر وسعاً ، في تحريض دول اوروبا البعيدة عن متناول المسلمين مباشرة لحشد طاقاتها وزج امكاناتها في الصراع الدائر من حولها . وقد أخذ هذا الدعم تحت راية الصليب ينتظم اكثر فأكثر ، ويشتد يوماً بعد يوم . ولم يكن استيلاء النصارى على طليطلة الا تعبيراً

عن المد المتعاظم لقوات التحالف الصليبي . وفي الواقع فإنه لم تكد تمضي عشر سنوات على هذا الحدث الا وأعلنت الكنيسة الحرب الصليبية ، ولم تمض على ذلك أيضاً أكثر من أربعة أعوام حتى وطئت أقدام الغزاة الصليبيين الديار المقدسة في فلسطين .

لم تكن (الزلاقة) ولا كانت معركة (ملازكرد) قبلها بخمسة عشر عاماً ، إلا حلقات في إطار الحرب طويلة الأمد ، وقد أحرز المسلمون انتصاراً حاسماً في المعركتين حيث أمكن لهم تدمير قوات النصارى تدميراً تاماً ـ تقريباً ـ غير أن هذه القوات والجيوش الصليبية لم تكن الا طلائع الحشود الضخمة التي كانت تعدها الكنيسة وتنظمها في أعماق (الخزان الاوروبي الكبير) . وقد كان من المحال على المسلمين في تلك الحقبة الوصول إلى ذلك (الخزان) أو استزاف ما يختزنه من القدرة القتالية . وعلى هذا فإن ما أحرزه المسلمون من انتصارات ـ على أهميتها ـ لم تكن أكثر من انتصارات محدودة على مستوى العمليات في اطار الصراع على مستوى السياسة الاستراتيجية الشاملة .

هذا هو إذاً ما يفسر بدقة سبب إحجام المعتمد ومعه ابن تاشفين عن تطوير انتصار الزلاقة والوصول به إلى مستوى الانتصار الاستراتيجي وذلك باستعادة طليطلة التي كانت هي الحافز الاساسي على طريق الزلاقة . فهل كانت هناك قناعة متوافرة لدى (ابن عباد) بعجز قوات المسلمين عن استعادة طليطلة ؟ أم هل كان هناك ما يشير بصورة ثابتة إلى أن النصارى في أوروبا على

استعداد لبذل كل جهد مستطاع للاحتفاظ بطليطلة ؟ في الواقع ، استطاع (المرابطون) تحرير عدد كبير من المعاقل والحصون التي كـان الفرنج الصليبيون قد احتلوها في شرق الاندلس، وشماله ، كما استطاعوا استعادة عدد من المدن الهامة من قبضة الصليبيين، غير أنهم لم يتمكنوا من استعادة طليطلة . أو فرض حصار متطاول عليها لاخضاعها، مما يؤكد أن قبضة الصليبيين على شمال الأندلس كانت قد بلغت درجة من القوة جعل من الصعب على المسلمين استعادة السيطرة على شبه الجزيرة (الايبيرية) والعودة بها موحدة تحت راية المسلمين ، كمثل ما كانت عله أيام الفتح ، أو حتى أيام (الحاجب المنصور) قبل ذلك بمائة عام فقط . وهكذا فقد كان القرن الرابع الهجري هو قرن المخاض لتشكيل تحولات جديدة ، وبصورة بطيئة جداً غير أنها ثابتة ، للانتقال بالعالم الغربي من مرحلة الدفاع الاستراتيجي الى مرحلة الهجوم الاستراتيجي ، فكانت ملازكرد في المشرق والزلاقة في المغرب هي المؤشرات الثابتة على هذا التحول . وليس من الغريب على ملوك النصارى في الشمال الاندلسي ـ وعلى الفونسو السادس بالذات ـ أن يستعيد قدرته القتالية خلال بضع سنين ليعاود الهجوم على ثغور المسلمين ، يحفز ملوك النصارى الاندلسيين الى ذلك استيلاء الصليبيين على بعض الامارات والحدود في المشرق العربي ـ الاسلامي . وتحول الصراع الصليبي ـ الاسلامي في الاندلس ، إلى مجرد جبهة ثانوية في إطار الهجوم الصليبي الشامل على كل جبهات المسلمين .

يتبين لدى الوصول إلى هذه الحقيقة وإدراكها مدى أهمية

الموقف الذي اتخذه المعتمد في الاستنصار بقوات المسلمين المجاهدين في المغرب (المرابطين) إذ عرف أن المعركة مع الصليبيين هي أكبر من قدرات مملكته وممالك الاندلس جميعها ، بل وحتى أكبر من قدراته مع قدرات المغرب العربي الاسلامي مجتمعة ، إنـها معركة الوجود الإسلامي في الأندلس . وفي هذه الحالة يفقد الحكم أهميته ، وتزول عن السلطان قيمته ، وهو ما عبر عنه المعتمد بصورة دقيقة في تفضيله أن يكون راعياً لابل ابن تاشفين في الصحراء ، على أن يكون راعياً لخنازير الفونسو ملك النصارى .

لقد كان من المفروض أن يستشعر ملوك المسلمين وامراءهم ، بقيمة المبادأة التي اتخذها (المعتمد بن عباد) وأهميتها ، وأن يعرفوا مدى التحولات التي وصلت إليها مسيرة الصراع بين المسلمين وأعدائهم ، فيعملوا جميعاً على وضع مخططات هجومية متطورة يمكن لها مجابهة الاحتمالات القادمة والتي كانت ترسم ظلالها على أفق الصراع . وكان من المفروض أن تقوم أهمية هذه التحولات من خلال النتائج المباشرة لمعركة الزلاقة والتي لم تتمكن من الارتقاء إلى مستوى السياسة الاستراتيجية غير أن الامور سارت في الاتجاه المضاد تماماً . حيث تم توظيف نتائج الانتصار المحدود على مستوى العمليات ، من أجل إحداث تغييرات داخلية في الأنظمة والكيـانات الاندلسية . الأمر الذي أدى إلى اضعاف جبهة الصراع الداخلية . فكانت النتيجة المأساة غير محدودة بالقضاء على المعتمد وآله ـ وهم أفراد مصيرهم إلى زوال . وانما تجاوزتها إلى إضعاف

القاعدة الصلبة للمسلمين ، وإثارة الشكوك التي جاءت لتحل محل الثقة ، فكان في ذلك الخطر الحقيقي المدمر لقدرات المسلمين .

هنا تظهر مجموعة من التساؤلات : هل كان بالمستطاع الابقاء على ممالك (ملوك الطوائف) وهي على ما كانت عليه من الاختلاف والتناحر ؟ وإذا كان من غير الطبيعي الابقاء عليها ، فهل كانت هناك وسيلة أخرى غير القضاء على حكامها وامرائها ؟ وإذا كان (المعتمد) مدركاً لأبعاد الخطر الذي يجابهه ، وكان صادقاً ومخلصاً في توحيد جهود المسلمين ، فلماذا تصدى لمقاومة المرابطين عندما جاؤوا لاخراجه من ملكه ؟ ولماذا خاض ضدهم صراعاً ضارياً ولم يستسلم لهم طالما أنه قبل منذ البداية أن يكون (راعياً للابل ـ لا راعياً للخنازير) ؟

إن الاجابة على هذه الاسئلة ، وأمثالها ، تدخل في مجال الافتراضات ، غير أنه بالامكان القول أن القوة لم تكن هي الوسيلة الوحيدة المتوافرة لتوحيد جهود الاندلسيين ، وارغامهم على بذل كل الامكانات المتوافرة لمجابهة العدو المشترك . لقد كان الخطر جاثماً على صدور كافة الاندلسيين من حكام ومحكومين ، وقد كان هذا الخطر بدرجة تكفي لتوحيد الجهود ، لا سيما وأن الانحرافات لدى معظم (ملوك الطوائف) لم تصل إلى حد خيانة قضية الإسلام والمسلمين بدلالة اقبالهم جميعاً ، ومن غير استثناء على تقديم كل ما هو متوافر لديهم من القدرات والامكانات في معركة الزلاقة . وعلى هذا فالمقياس الحاسم في التغيير ـ واعادة التنظيم ـ للدولة هو بقدر ما يتوافر للحاكم من القدرة لحشد

طاقات المسلمين ، وبقدر ما يظهره من التصميم في رعاية امور الرعية ورفع راية الاسلام . وليس في استبدال اندلسي بمرابطي ـ على نحو ما حدث ـ وعند هذه النقطة يظهر الانحراف الثقيل الذي سار عليه المرابطون في قضائهم على (الممالك الأندلسية) . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فقد برهنت التجربة التاريخية . على أن الصراعات بين المسلمين هي أخطر عليهم من أعدائهم وهو ما عبر عنه الخليفة عمر رضيَ الله عنه بقوله (إنني أخوف على المسلمين من أنفسهم بأكثر من الخوف عليهم من أعدائهم) . ومن المحتمل بعد ذلك ، أن يكون المعتمد قد اعتبر نفسه المسؤول الاول عن مجابهة الصليبيين في الشمال وقد كان كذلك فعلاً ، ووصل بالتالي إلى قناعة وهي أن عزله عن مملكته هو في غير مصلحة المسلمين ، وكان موقفه تجاه المرابطين مرتبطاً بهذه القناعة . غير أن الأمر الثابت هو أن موقف المعتمد ضد المرابطين قد استند إلى حافز أقوى ـ أو بدرجة لا تقل عن حرصه على المصلحة العامة للمسلمين في أقل تقدير ـ فقد رأى (المعتمد) ملوك الطوائف وهم يلقون حتفهم ـ بالإبادة والقتل ـ على أيدي المرابطين ، فأراد تجنب الوصول إلى هذه النهاية ـ المأساة ـ وما خروجه لقتال المرابطين وليس على جسمه ما يحميه من الدروع ـ مستقتلاً وباحثاً عن المنية ـ إلا برهاناً أكيداً على رغبته في تجنب ذل الأسر وذل الحاجة ، وهو الانسان العربي الأبي ، الذي عاش حياته في عز مقيم ، وبقيم الفروسية العربية وأخلاقها وفضائلها .

مهما كان عليه الأمر ،فالقضية التي لا تقبل الجدل أو المناقشة

هي أن (المعتمد) قد تولى بنفسه توجيه الأحداث نحو (الزلاقة) وهو الذي مهد لمعركتها وقاد عملياتها بكفاءة نادرة ، وكان مخلصاً كل الاخلاص لقضية الاسلام والمسلمين . ولقد جاءت هذه المعركة لتشكل نقطة مضيئة وكوكباً ساطعاً في سماء العرب المسلمين . وكثيراً ما يحاول الباحثون ايجاد بعض الروابط المشتركة بين بعض الاحداث . فتكون (الزلاقة) بمرتبة (حطين) من حيث ظروف المعركة ومسيرة عملياتها القتالية ، ونتائجها المباشرة على مسرح العمليات . غير أن نتائج المعركتين متباينتين ومختلفتين ، فلقد عمل صلاح الدين على توظيف نتائج المعركة من أجل الارتفاع برصيدها إلى المستوى الاستراتيجي ، وهكذا أطلق جيوش المسلمين لانتزاع عدد كبير من الحصون التي يحتلها الصليبيون ، وفي طليعتها الكرك ، كما حرر الأماكن المقدسة (القدس) وطهرها من الفرنج الصليبيين . في حين سارت الامور على النقيض من ذلك في (الزلاقة) إذ تم توظيف النصر في العمليات من أجل إعادة التنظيم الداخلي ، فانحدرت قيمة النصر وتضاءلت ، وانعكس ذلك بالدرجة الاولى على بطل (ملحمة الزلاقة) المعتمد بن عباد ، حيث نقل إلى (أغمات) في المغرب ومات شريداً منفياً .

كلمة لا بد لها ، لم يكن (ابن تاشفين) أقل إخلاصاً لقضية الإسلام والمسلمين من المعتمد بن عباد ذاته ، إن لم يكن يزيد عليه صدقاً وتجرداً واخلاصاً . ولقد بذل ما يراه مناسباً لاصلاح أحوال المسلمين ، غير أن رؤيته للامور لم تكن واضحة بمثل ما كانت عليه عند ابن عباد ، ولم يكن لـه مغنـم شخصي من وراء

عزل المعتمد بن عباد . وكل ما في أمره أنه (اجتهد فأخطأ) غير أن الخطأ هنا ، وعلى مستوى قضية الشعوب يتزايد أهمية وخطورة ، وهذا ما يفرض الابتعاد في معالجة قضايا الشعوب عن (النوايا الحسنة) وإن كان لا بد من توافر حسن النوايا في كل عمل من الاعمال المشتركة بين الافراد والجماعات .

لم يعمر المعتمد في منفاه طويلاً ، فقد تثاقلت عليه الهموم ، فمضى للقاء به بعد أربعة أعوام من عزله (٤٨٤ ـ ٤٨٨ هـ) ولحق به (يوسف بـن تاشفين) بعد اثني عشر عاماً (٥٠٠ هـ) أي بعد عشرة أعوام من إعلان الحروب الصليبية ، وبعد سبعة أعوام من احتلال الصليبيين (بيت المقدس) في حملتهم الصليبية الاولى . وترك الاثنان هموم الدنيا لأصحابها ، واحتكما إلى خالقهما في أمر ما خلفاه وراءهما . وتمضي السنون ، عشراتها ومئاتها وألفها ، وتبقى ذاكرة التاريخ محتفظة بحيويتها ونشاطها ، وهي تسجل مزيداً من الاحداث مع مضي كل يوم جديد ، فتضيف بذلك إلى تجارب الانسان على الأرض فيضاً من الخبرات ، ويبقى نسيج الاحداث متصلاً ماضيه بحاضره ، وحاضره بمستقبله .

لقد كان المعتمد ، وابن تاشفين ، والزلاقة ، اسماء بارزة في نقطة التحول الحاسمة على درب الصراع الصليبي ضد الاسلام والمسلمين ، وهو الصراع الذي لم يتوقف لا في السلم ولا في الحرب . والذي ما زال مستمراً في استطالاته وامتداده حتى اليوم ، وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وإلى أن تدرك الصليبية أن حربها ضد المسلمين هي حرب عقيمة ولا

جدوى منها ، لأن قوى الصليبية أعجز من أن تطفىء نور الله .
غير أن ذلك يضع على العرب خاصة وعلى المسؤولين من عرب وغير عرب مسؤولية الدفاع عن الاسلام والمسلمين في كل دنيا العرب والمسلمين . وضمن هذا الاطار ، تبقى الزلاقة محتفظة بكل أهميتها ، إذ أنها تشكل في حد ذاتها تجربة مغايرة لكل التجارب التي عرفها العرب والمسلمون .

لقد أطل القرن الخامس عشر للهجرة ، ومضت معه زهاء تسعة قرون على موقعة الزلاقة . وقد تراكمت خلال هذه الحقبة التاريخية ، مجموعة من الخبرات والتجارب الخاصة بالعرب والمسلمين قد تزيد على كل ما اكتسبته الأمم والشعوب من الخبرات والتجارب . ويقف المسلمون على مشارف القرن الجديد ، وهم أكثر تفاؤلاً بمستقبلهم ، فعسى أن يكون لهم من تاريخهم مناراً وهادياً لرسم خطاهم على طريق المستقبل ، مستقبل الأمة العربية ـ الاسلامية ، ومستقبل الانسان العربي المسلم .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

٤ ـ كلمة أخيرة

ويصل البحث إلى نهايته ، ولا تنتهي قصة المعتمد ، فهي أكبر من أن يحيط بها بحث ، وأعظم من أن يشملها كتاب . غير أن هناك مجموعة من النقاط التي يستوجب البحث التعرض لها ـ بإيجاز ـ :

أولها : أن (قصة المعتمد) هي قصة الصراعات التي مزقت العالم الإسلامي في كثير من الظروف ، ومن هنا تكتسب هذه القصة أهمية مزدوجة ، قصة المأساة في حد ذاتها ، وقصة ما أعقبها من أحداث تعتبر استطالات (للمأساة) وهي تشكل بذلك الدرس الأكثر أهمية في (التجربة التاريخية) .

وثانيهما : أنه من المحال تشبيه التجربة التاريخية لأمير المؤمنين (يوسف بن تاشفين) بتلك التجربة التي تعرضت لها دولة العباسيين على أيدي (الفرس) أو (الأتراك) مثلاً ، أو حتى بتجربة (الفاطميين) في مصر ، فلكل من هذه التجارب حوافزها

الخاصة ، وظروفها المميزة . ولا ريب أن قضاء (المرابطين) على (دولة بني عبــاد)و (دولة بني جهور) كانت في وجه من وجوهها قضاء على العنصر العربي . الأمر الذي أضعف (العرب في الأندلس) فكان في ذلك إضعاف (للعرب ـ المسلمين) ومن هنا تتأكد مرة أخرى خطورة الفصل بين ثنائية (العرب ـ المسلمين) إذ أن في هذا الفصل إضعاف للعرب المسلمين عموماً ، فالعرب هم حملة الرسالة الإسلامية ، وهم أصحاب لغتها ، لغة القرآن الكريم ، وهم أصحاب عصبيتها ، ولا بد لهم من ممارسة دور القيادة والريادة حتى يعتز العرب والمسلمون . ومما لا شك فيه هو أن (ابن تاشفين) القائد المسلم المؤمن . لم يكن يبغي يقيناً وهو يزيل (ملوك الطوائف) إضعاف المسلمين ، بقدر ما كان يطمح لتوحيد قدراتهم وزيادة قوتهم ، وقد تحقق له ذلك لمرحلة قصيرة ، غير أن (إضعاف الثقة) بين (العرب المسلمين) وبين (المسلمين من غير العرب) كان أخطر بنتائجه البعيدة مما تم تحقيقه من مكاسب مؤقتة .

وثالثاً : إن الاقتتال بين المسلمين (من عرب وغير عرب) ما كان إلا شؤماً على المسلمين كلهم . « **مصداقاً لقول الرسول الكريم في حجة الوداع : أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . . . أيها الناس ، إسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة . . . فلا تظلمن أنفسكمٍ ، اللهم هل بلغت ؟ وستلقون ربكم . فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب**

بعضكم رقاب بعض . ألا ليبلغ الشاهد الغائب »[1] ذلك هو المنهج الحق الذي وضعه الرسول الأعظم ، ﷺ ، لأمة المسلمين ، وهوالمنهج الذي جاءت التجربة التاريخية ، المرة تلو المرة ، لتؤكد صدقه وصلاحيته . لكل زمان ومكان ، ما دام لأمة العرب وأمة المسلمين وجود على الأرض .

ورابعها : أنه من المحال الاعتماد على صدق النوايا ، أو النزوع العاطفي ، في تنسيق التعاون بين دول العرب المسلمين ، والمسلمين من غير العرب . فقضية البناء ، للحاضر والمستقبل ، لا تقوم إلا على أساس المصلحة العليا للمسلمين من عرب وغير عرب . وهذا لا يتناقض أبداً مع المصالح الخاصة التي تفرضها الظروف الإقليمية . ولقد كان تحرك (ابن تاشفين) للأندلس قائماً على (المصلحة العليا للمسلمين) وكان (القضاء على حكم ملوك الطوائف) ضمن هذا الإطار ذاته . غير أن الطريقة التي نفذت بها ـ جاءت بنتائج عكسية ، لا سيما على المدى البعيد ومن هنا تظهر الضرورة للتوفيق بين الأهداف والوسائل ، على أسس بعيدة كل البعد عن النزوع العاطفي ، وتتحقق فيها قدر المستطاع (المصلحة المشتركة ـ وفقاً للمفهوم الحديث) . **ولعل من قائل : وهل كان باستطاعة ابن تاشفين اكتساب قوة الأندلس من غير توحيدها تحت قيادة واحدة ؟ ثم ألم يحاول المعتضد وابنه المعتمد من بعده إزالة (ملوك الطوائف) لدعم القدرة**

---

(١) فقه السيرة (الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي) دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثامنة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م ص ٤٣٩ ـ ٤٤١ .

الذاتية للعرب المسلمين في الأندلس ؟

مرة أخرى ، لقد أكدت التجربة التاريخية (للمعتمد وابن تاشفين) بالذات ، أن وحدة القيادة على المستوى الاستراتيجي وعلى مستوى العمليات القتالية ـ كما أكدته (تجربة الزلاقة) والتجارب الكثيرة التي حفل بها التاريخ الإسلامي ، لا تعني أبداً زوال الإدارات الإقليمية أو القضاء عليها طالما أنها بقيت منطلقة في عملها من وحدة الهدف وهو (الدفاع عن المسلمين وضمان أمنهم وتحقيق العزة لهم في أوطانهم) . أما عند الاختلاف في الهدف : فإن ذلك يعني زوال الصفة الإسلامية عن الحكم ، وتبع لهذا الاختلاف فستظهر هناك اختلافات أخرى تجعل من المحال التفكير في تنسيق الجهد أو تنظيم التعاون لأن ذلك لن يكون في مصلحة المسلمين . وهذا ما لم يكن متوافراً في حكم ابن عباد الذي أطلق مقولته التارخية الشهيرة (**رعي الجمال خير من رعي الخنازير**) . وتبقى الدروس المستخلصة أكبر من الحصر ، وأكثر من التعداد والتبيان ـ وبعد ، تبقى كلمة : لقد ضم هذا البحث من الشعر قدراً يزيد كثيراً على ما تضمنته جميع الأبحاث السابقة (في مشاهير قادة الإسلام) ويعود السبب في ذلك إلى أن الشعر العربي ـ الأندلسي ، هو الذي حفظ للمعتمد سيرته ، وهو الذي أبرز مجموعة الأحداث وأرخ لها ، وهو الذي رفد الأدب العربي برافد ثرٍ خلده وأغناه ، فمن البديهي أن يطغى الطابع الشعري على تلك التجربة التاريخية التي تعرض لها المعتمد و (بنو عباد) .

وبعد ، فهل كانت (سيرة ابن عباد) أكثر من ملحمة شعرية ؟

وهل كانت قصص أفراد عائلته ـ في القراءات ـ أكثر من أناشيد غنائية باكية ؟

وهل كانت (التجربة التاريخية للمعتمد وابن تاشفين) في الزلاقة ، الا فيضاً شعرياً صاغت كلماته العاطفة الإسلامية الدافقة كالحزن ، الهادرة كعباب البحر ؟

ليس الغريب بعد ذلك أن تكون قصة (المعتمد بن عباد) وسيرته ، كلها لحناً شعرياً يتردد دائماً على شفة الزمان في كل وقت ومكان . بل أنه قد يبدو غريباً لو لم تكن كذلك .

وستبقى قصة (المعتمد بن عباد) نموذجاً ، للإنسان المؤمن بربه ، المخلص لدينه ويقينه ، المستسلم للواحد القهار في سلمه وحربه ، في أفراحه وأتراحه .

وستبقى قصة (المعتمد) رمزاً للإنسان العربي المسلم ، في عزته وإبائه ، في نخوته وشهامته ، في رجولته وصموده . لقد عاش عظيماً ، ومات عظيماً ، عاش ملكاً ، ومات ملكاً . وخلف في الدنيا كلمة ستبقى مرتبطة باسمه ، وبذلك النصر الحاسم الذي عرفته الزلاقة :(رعي الإبل خيرٌ من رعي الخنازير) .

قــراءات

ثورة عبد الجبار بن المعتمد



ثورة عبد الجبار بن المعتمد

أخذ (بمالقه)[1] رجل كبير يعرف بابن خلف ، فسجن مع أصحاب له ، فنقبوا السجن ، وذهبوا إلى حصن (منت ميور) ليلاً . فأخرجوا قائدها ، ولم يضروه ، وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل ، فسألوه ، فإذا هو عبد الجبار بن المعتمد ، فولوه على أنفسهم ، وظن الناس أنه الراضي ، فبقي في الحصن . ثم أقبل مركب من الغرب ، يعرف بمركب (ابن الزرقاء) فانكسر بمرسى الشجرة قريباً من الحصن ، فأخذوا بنوده ، وطبوله ، وما فيه من طعام وعدة ، فاتسعت بذلك حالتهم ، ثم وصلت أم عبد الجبار إليه ، ثم خاطبه أهل الجزيرة ، وأهل (أركش)فدخلها سنة ٤٨٨ هـ .

---

(١) نفح الطيب ٢١٧/٤ ـ ٢٢٠ . ومالقة مدينة برية بحرية ، تقع على البحر الأبيض المتوسط ، كانت قديماً تعرف باسم (ريه) وتعني عند النصارى (سلطانة البلاد) ولها قلعة منيعة ، تشتهر بأشجار اللوز والتين . أشاد العرب بوصف محاسنها (المغرب في حلى المغرب ـ تحقيق شوقي ضيف ٤٢٣/١ ـ ٤٢٤) .

وعلم (المعتمد) وهو في عدوة المغرب بثورة ابنه (عبد الجبار) فخاف لا على نفسه ، وإنما على أهله ، من حقد يوسف ابن تاشفين وبطشه ، وجزع جزعاً شديداً . وجعل يتشكى من فعله ويتظلم ، ويتوجع منه ويتألم ، ويقول : عرض بي للمحن ورضي لي أن أمتحن ، ووالله ما أبكي إلا انكشاف من أتخلفه بَعدي ، ويتحيفه بُعدي . ثم أطرق ورفع رأسه ، وتشوف الى السماء وتطلع ، وما هي إلا لحظة ، بمقدار ما تنداح دائرة ، أو تلتفت مقله حائرة ، حتى انفكت عقدة لسانه ، فقال :

كذا يهلك السيف في جفنه ... إلى هَز كفيٍّ طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقلهُ ... ولم تروه من نجيعٍ يميني
كذا يمنع الطِّرْف عَلْكَ الشكيـ ... ـم مرتقباً غِرَّةً فيٍ كمين
كأن الفوارس فيه ليوثٌ ... تراعي فرائسها في عرين
ألا شرف يرحمُ المشرفيَّ ... مما به من شمات الوتين
ألا كرمٌ ينعش السمهري ... ويشفيه من كل داء دفين
ألا حَنةٌ لابن محنية ... شديد الحنين ضعيف الأنين
يؤمل من صدرها ضمة ... تبوئه صدر كفؤ معين

ويعلم ابن تاشفين بأمر ثورة عبد الجبار ، فيصدر أمره بثقاف المعتمد في الحديد ، ويثقل القيد على المعتمد فيقول مخاطباً الحديد :

قيدي ، أما تعلمني مسلماً ... أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرني فيك أبو هاشم ... فينثني القلب وقد هشما

ويمضي (عبد الجبار) بثورته ، ممتنعاً بحصن (أركش)

المجاور لاشبيلية ، وهو ظاهر على بسائط وبطاح ، لا يمكن معه عيش ، ولا يتمكن من منازلته جيش . حتى سار نحوه الأمير (سير ابن أبي بكر) قائد المرابطين في الاندلس ، مسرعاً إليه قبل أن يرتد طرف استقامته ، فوجده وشره قد تشمر ، وضره قد تنمر ، وجمره متسعر ، وأمره متوعر ، فنزل عدوته ، وحل للحزم حبوته ، وتدارك داءه قبل إعضاله . ونازله وما أعد آلات نضاله ، وانحشدت إليه الجيوش من كل قطر ، وأفرغ من مسالكه كل قطر ، فبقي محصوراً لا يشد إليه إلا سهم ، ولا ينفذ عنه إلا نفس أو وهم ، وامتسك شهوراً حتى عرضه أحد الرماة بسهم فرماه ، فأصماه ، فهوى في مطلعه ، وخر قتيلاً في موضعه ، فدفن إلى جانب سريره ، وأمنَ عاقبة تغريره ، وبقي أهله ممتنعين مع طائفة من وزرائه، حتى اشتد عليهم الحصر ، وارتد عنهم النصر ، وعمهم الجوع ، وأغب أجفانهم الهجوع ، فنزلت منهم طائفة متهافتة ، وولت بأنفاس خافتة ، فتبعهم من بقي ، ورغب في التنعم من شقي ، فوصلوا إلى قبضة الملمات ، وحصلوا في غصة الممات فوسمهم الحيف . ونقسمهم السيف .ولما زأر الشبل خيفت سَوْرة الأسد ، ولم يرج صلاح الكل والبعض قد فسد . فاعتقل (المعتمد) خلال تلك الحال وأثناءها ، وأحل ساعة الخطوب وفِناءها . وحين أركبوه أساودا وأورثوه حزناً بات له معاودا ، قال المعتمد :

غنتــك أغماتيــة الألحــان ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالثعبان رمحك في الورى فغدا عليك القيد كالثعبان
مترمداً يحميك كل تمـرد متعـطفاً لا رحمـة للعـاني

ولما فقد (المعتمد) من يجالسه ، وبعد عنه كل من كان يؤانسه ، وتمادى كربه، قال :

تؤمل للنفس الشجية فرجة
وتأبى الخطوب السودُ إلا تماديا
لياليك في زاهيك أصفى صحبتها
كذا صحبت قبلي الملوك اللياليا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ
وبعدهما نسخُ المنايا الأمانيا

ولما امتدت في الثقاف ـ القيود ـ مدته ، واشتدت عليه قسوة الكبَل وشدته ، وأقلقته همومه ، وأطبقت غمومه ، وتوالت عليه الشجون ، قال :

أنباء أسرك قد طبقن آفاقاً
بل قد عممن جهات الأرض إقلاقاً
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة
وأغرق الدمع آماقاً وأحداقاً
قد ضاق صدر المعالي إذا نعيت لها
وقيل : إن عليكَ القيد قد ضاقا
قلت الخطوب أذلتني (طوارقها)
وكان غربي إلى الأعداء طراقاً
متى رأيت صروف الدهر تاركة
إذا انبرت لذوي الأخطار أرماقاً

المحتويات

الموضوع	الصفحة

صَدَرَعَنْ دَار النفائس للمؤلف

آ ـ الايام الحاسمة في الحروب الصليبية .

ب ـ مشاهير قادة الاسلام

١ ـ عقبة بن نافع .
٢ ـ موسى بن نصير .
٣ ـ قتيبة بن مسلم الباهلي .
٤ ـ سعد بن أبي وقاص .
٥ ـ عمرو بن العاص .
٦ ـ أبو عبيدة بن الجراح .
٧ ـ خالد بن الوليد .
٨ ـ معاوية بن أبي سفيان .
٩ ـ صلاح الدين الايوبي .
١٠ ـ المظفر قطز وعين جالوت .
١١ ـ الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة
١٢ ـ عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) .
١٣ ـ عبد الرحمن الناصر لدين الله .
١٤ ـ الحاجب المنصور .
١٥ ـ المعتمد وابن تاشفين

ج ـ جهاد شعب الجزائر

١ ـ خير الدين بربروس .
٢ ـ الجزائر والحملات الصليبية .
٣ ـ المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي .
٤ ـ الأمير عبد القادر الجزائري .
٥ ـ محمد المقراني (وثورة ١٨٧١ ـ الجزائرية) .
٦ ـ الأمير خالد الهاشمي الجزائري .
٧ ـ عبد الحميد بن باديس .

ويصدر تباعاً :

٨ ـ الصراع السياسي على نهج الثورة الجزائرية .
٩ ـ الله أكبر ـ وانطلقت ثورة الجزائر .
١٠ ـ جيش التحرير الوطني الجزائري والصراع المسلح .
١١ ـ أيام جزائرية خالدة .
١٢ ـ المجاهدون الجزائريون ـ وتطور الصراع المسلح .
١٣ ـ المجاهدة الجزائرية ـ والارهاب الاستعماري .
١٤ ـ الاستعمار الفرنسي في مواجهة الثورة الجزائرية .
١٥ ـ جبهة التحرير الوطني الجزائرية ـ والصراع السياسي .

من منشورات «دار النفائس»

- سلسلة استراتيجية الفتوحات الاسلامية، تأليف: أحمد عادل كمال:

  ١ ـ الطريق إلى المدائن
  ٢ ـ القادسية
  ٣ ـ سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية
  ٤ ـ الطريق الى دمشق.

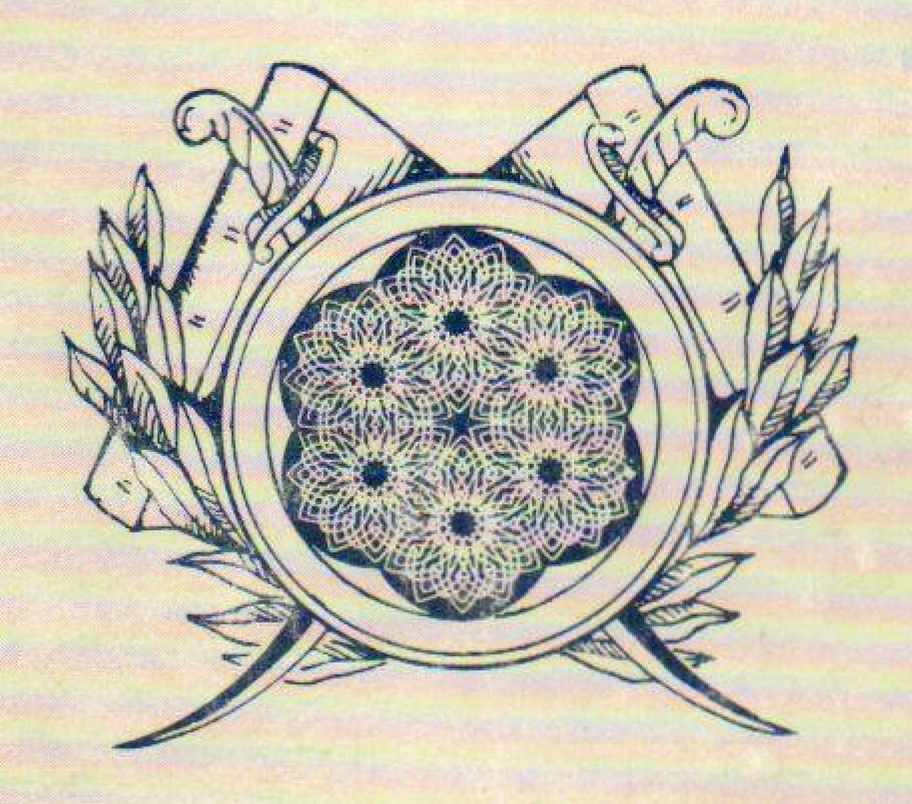
- جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري في سني الفتوحات الاسلامية.
  أحمد عادل كمال

- الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي
  الدكتور ماهر حمادة

- الفتنة ووقعة الجمل (رواية سيف بن عمر)
  تحقيق أحمد راتب عرموش

- تاريخ فلسطين القديم
  ظفر الاسلام خان

- تاريخ الدولة العلية العثمانية
  تأليف محمد فريد بك المحامي
  تحقيق: الدكتور إحسان حقي



دار النفائس ص.ب ٦٣٤٧ ـ ١١ هاتف ٣٠٢٥٣٨ ـ بيروت